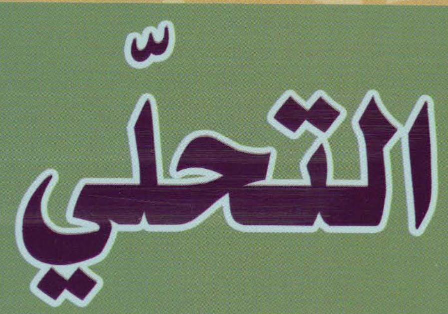
سلسلة الأخلاق والعرفان

3



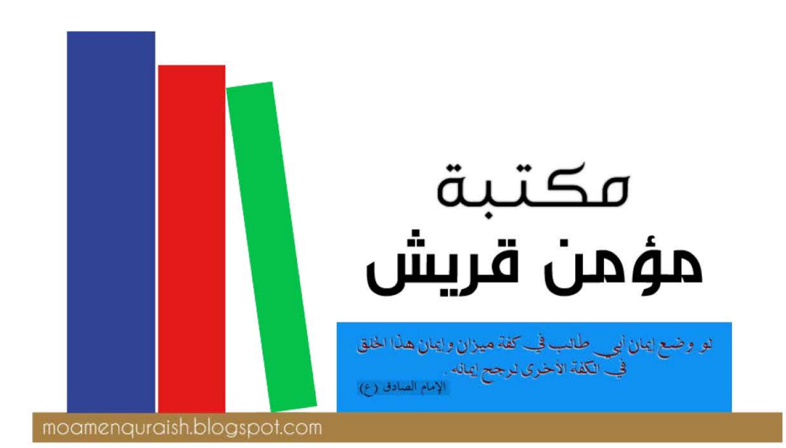
# التحلّي

## المفردات الأخلاقية السلوكيّة

الجزء الثاني

كريم محمود حقيقي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

# التحلي

## المفردات الاخلاقية و السلوكية



سلسلة الأخلاق والعرفان
(٢)

# التحلي

## المفردات الروحية و المعنوية

(الجزء الثاني)

تأليف:
كريم محمود حقيقي

ترجمة:
زهراء يگانه




ابداع للنشر

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م




للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت
Daralkatebalarabi@hotmail.com

# المقدمة

باسم الرب المزكي المطهر:

باسم الرب الذي رعاك، وهو على طول الخط وفي جميع اللحظات ناصرك ومولاك، إلهك الذي لا أعلم هل تذكر شتاءه القارص بثلوجه كلما نظرت في ربيعه إلى سفوح جباله تفترش أزهاره، فتذوب في روعة جمالها؟

وهل يذكّرك صفاء قطرات المطر النقية وشفافيتها بحلكة الغمام، وهل يلوح لك نقاؤها بملوحة مياه البحار وتلوثها؟

وأنت ترتشف كأساً من الحليب، أما يخطر على بالك أحياناً أنى لهذا النقي الحلو المذاق أن يخترق أوعية العلف الممضوغ والروث والدم ليصل على هذه الحال إليك؟

قال تعالى:

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[1].

---

١ ـ سورة النحل، الآية ٦٦.

وأنت تلاحظ كيف يداعب عبير الياسمين روحك، وتسكرك نفحات بعض الأزهار في الأسحار، وتذكرك سيقان أزهار مسك الروم بطهارة مريم العذراء عليها السلام ونقائها، هل أمعنت في أشجارها ورأيت أقذر الأسماد وتلتصق بسيقانها وجذورها؟

أما ترى في كل هذا ومئات المظاهر غيرها يد الرب المزكي المطهر؟ ناده: إلهي أعلم أنك خلقتني من أنتن المياه، وأنشأتني بين مصل الدماء، انتشلتني من ظلماء الرحم وأخرجتني منها إلى مسرح مظاهر عالمك ورزقتني من باطن تربتك البخسة السوداء آلاف النعماء، وسقيتني ألذ شراب من بين الروث والدم، وأنميت أعبق الأزهار من أقذر أنواع السماد. كل هذه التحولات الكيميائية السحرية مظاهر أفعالك. ها قد حان الأوان لتمسح بهذا الصنع البديع على صدأ كياني فتزكني من تلوثاتي وأدراني.

اليراع يدب متقدماً في هذه الصفحات. فإن واكبته خطوة فخطوة تكن أفضل شاهد على هذه التحولات السحرية. فليلهج لسانك شاكراً لله الذي أبىٰ لك التمرغ في مزبلة الآثام وأراد لك الالتحاق بروضة قربه.

قسماً بهذا الرب العظيم أن هذا اليراع ليس بذي فعل ولا أنت على مثل هذه الهمة العالية. إنه شأنه فهو الذي أطلق الدعوة، وهو الذي ساقك نحو الصحوة، وجرك لمثل هذه الخطوة. ألقىٰ سلسلة الحب في عنقك ليجرك بها إلى مراتع الوالهين به. لا يؤلمنّك دفعه فجميع الآلام تتأتى من التوقف واللبث.

أما تذكر حالك وقد كنت غريقاً في لجة البحر؟ حمداً لله على بلوغك الساحل. انتشلت: من حضيض الذل لتستقر في ذروة العز، من الأوساخ، من أنتنها لتتطيب من العطور بأزكاها، من مراتع الشوك لترد رياض الأزهار. هل لك طلبة غير هذه؟ ولكن.. ايها العزيز! إنها ليست محطة الاستقرار واللبث. فما تجاوزنا من الطريق أكثر من نصفه.

أعلمُ أنك تستشعر في روحك الصفاء والنقاء. إياك أن تشغلك هذه النشوة؟ فما كل هذا هو الهدف. فكل ما كان إنما عبير من ذلك المحبوب لاحَكَ، نال به هذا الكلام تصديقك. أردتك قانعاً ولكن ليس في طلب المعرفة. فالغني المتمول الأول والأخير يقول: ﴿قل رب زدني علماً﴾: لنتلهف أنا وأنت في طلب الحقائق من بين هذه البضاعة المزجاة. فذلك النور الذي أطل على قلبك إنما هو نور صبح كاذب يبشرك بقرب حلول الصباح الصادق. لابد من انتظار صادقهما، فإنه هو الهدف الحقيقي.

# وقفة

مرّ بنا:

باسم من ذِكره يـنعش القـلوب ونَـفَسه يـحيي الأزهـار والورود، واليراع يمضي في سبيله بإيحاء منه والخطاب يكـتسب المـعنى مـن حيويته.

إنهض أيها العزيز، فقد بلغنا موسم الربيع، قد ننثر الأزهار ويكون لنا حديث عن جمال المحبوب الستّار. أما سمعت يـنبوع جـمال عـالم الخلق وذروة روعة عالم الوجود، يقول.

﴿الله جميل ويحب الجمال﴾.

إنهض لعلنا على صراط التحلي، نزيد على الجمال كـمالاً وعـلى الكمال جمالاً. فمالنا من السلوك إلى ديار الجميل بمنأى عن الجمال. فما من باب يوصلك إليه لولاه.

كن علىٰ أهبة الاستعداد، فأنسام الرحمة سوف تهب قريباً فقد قال الرحمة للعالمين:

«إن في أيام دهركم نفحات».

أمهلنا لننمي من نفحات هذه الرحمة الزنابق وننشىء السنابل وننثر الورود، عسى ربوع القلب أن تتحول حدائق غناء والأرواح تصير رياضاً للأزهار.

لا أعلم إن كنت تتذكر ما مر بنا من كلام أم ان الفاصل الزمني بين اطلاعك على هذه الأجزاء والانتقال من باب لآخر قد أنساك؟ دعنا نطل مرة أخرى وبنظرة سريعة جداً على ما اجتزناه حتى الآن من طريق.

حدثتك في الجزء الأول، في باب (التخلي) عن «نهج النقاء» حتى نلت بالتوبة الصفاء عساك أن لا تتخلى عنه أبداً إن شاء الله. طالعت في ذاك الباب كل ما كان مطلوباً حول التوبة. أما تتذكر؟!

أما الباب الثاني (التزكي) فقد كان عن «الوفاء» لما حققته لكي لا تلقي نفسك ثانية في أحضان الأدران، حدثتك لاطلعك على التلوثات. أَوَلا تذكر ؟

وفي الجزء الأول من كتاب التحلي مهدنا للحديث عن هذه الخطوة بالكلام عن أسس وقواعد يشيد عليها صرح السعادة الشاهق وهي: عقد النية، طلب الحلال، الولاية، العبادة، الذكر، صلاة الليل، تلاوة القرآن والحزن والإخلاص والصوم والنوم. فرغنا تواً من بحث مسهب حول كل هذه الموضوعات.

فبعد هذه الوقفة، عدّ عدتك وأوثق شد رحالك وحزامك فقد حان وقت الانطلاق. استمع إلى الكلام عما تستحق الطلب حيازته وما يليق بالقلب والروح زينته.

## «الهدوء وفراغ البال»

عسى الله أن ينعم عليك ايها العزيز بالهدوء وفراغ البال، فلا كمال في العبادة لولاه. ولا تركيز للذهن حتى ينال القلب حظه من الهدوء، ولا تتم صلاة وذكر وتركيز مع التشوش.

قسماً بروحك يا عزيز الروح ان أكثر ما يتصوره الناس مدعاة هدوء إنما هو مبعث تشوش. وعلى هذا لا يزيدهم الإمعان في بذل الجهد لتحقيق تمنياتهم إلّا تشوشاً.

انظر إلى هؤلاء الطامحين، حققوا ما رنوا إليه من «طموح» ولكنهم ما اهتدوا في ذلك إلى الهدوء.

انظر إلى هؤلاء المغرمين بالعناوين والأسماء احرزوا منها «الاسم» وفقدوا «المسمىٰ». فرحوا بما غنموا من عناوين وقدموا في سبيلها النفوس قرابين.

فبئس الفعل فعلهم.

يقول تعالىٰ:

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[١].

اشتروا الدار ودفعوا صاحبها ثمناً.

دأبوا على حساب المال ونسوا حساب الأعمال. فانظر كيف يصفهم الباري عز وجل في قوله.

﴿ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾[٢].

رفده صاحب النعماء بحظ ما أوفره! وقبض من قاضي الحاجات نصيباً ما أعظمه! فلم يتأمل في أي منها ولم يستغل أحدها بل راح يطلب غيرها وكأنه ما طلبها ملحاً:

﴿ثمّ إذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾[٣].

تنعموا بنعماء ونعماء من مائدة صاحب الدار ولكنهم غرقوا في النعم حتى نسوا المنعم:

﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾[٤].

***

ما أتعس هذا النسيان البشري. جعل الإنسان ينسىٰ ربه وحتى

---

١ ـ سورة الحشر، الاية ١٩.

٢ ـ سورة الكهف، الآية ٥٧.

٣ ـ سورة الزمر، الآية ٨.

٤ ـ سورة الفرقان، الآية ١٨.

نفسه ويحسن ذكر ما عداهما. وأنى لمثل هذا أن تراه فارغ البال؟ وأنّى لمن أضاع سبيله أن يهديه الآخرون إلى السبيل؟ وكيف لمن لا يبصر مصدر النور أن يعرف طريق الخلاص من قعر الظلام؟!

اخبرتك ان المعرفة لا تتأتى إلّا بالتأمل، والعلم لا يستحصل إلّا بالتفكير، والتأمل والتفكير يتطلبان الهدوء. فأنى لك أنت المضطرب أن تنهل من كأس المعرفة، ومتى ترتدي رداء الوصال؟!

أمهلني أكتب لك وصفة من شأنك بتطبيقها في قرن الخوف والوحشة والقلق وضعف الأعصاب وقلة النوم أن تطمح للأمان من الشرور كلها.

ولَتحرزن هدوءاً حتى لا يبقى لك بعدها من حاجة وطلب.

إذاً، اعلّمك سبعاً أولها الزهد:

## «الزهد»

الزهد هو انعدام الرغبة. يقول تعالىٰ في كلامه المجيد عن ابناء القافلة التي عثرت على النبي يوسف عليه السلام:

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾[1].

الآن وقد أدركت معنى الزهد، أمهلني لاكسبك وجاهة الزاهد. والانسان قد يكون غنياً بماله زاهداً في قلبه وربما يكون فقيراً وقلبه شرهاً بمطامعه.

كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ينشد ويقول:

ادفع الدنيا بما اندفعت — واقطع الدنيا بما انقطعت

يطلب المرء الغنى عبثاً — والغنى في النفس لو قنعت[2]

المهم أن يكون المال في اليد لا في القلب، وذكر الله في القلب لا

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٢٠.

٢ ـ بحار الأنوار، الجزء ١٠٣، ص ٢، ح ١٣.

على اللسان.

فكل ما يداهم القلب يكبل القلب بالسلاسل، فما أدراك ما تـفعل هذه السلاسل بالقلب؟ وكم تـعاني الروح مـن هـذه الأغـلال؟ فـهذه السلاسل سوف تجني عليك يوماً ما.

استمع إلى الآية:

﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾[1].

فاعلم أن الميول والرغبات أغراس تزرعها في القلب وكلما تثبتت أكثر توغلت جذورها في الأعماق حتى تشغل فسحة القـلب كـلها، فكيف لذكر الله أن يكون له مقر في مثل هذه الفسحة المكتظة؟ وكيف يتحقق التركيز في مثل هذه الأجواء الملبدة؟ هذا هو فناء القلب.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك، فأولئك هم الخاسرون﴾[2].

وما أكثر الآيات المنبهة في هذا السياق.

طهر قلبك قدر المستطاع من هذه العبثيات. تمنحه قدراً أكبر مـن الهدوء. هيمن سلطانك على مملكة قـلبك. لا تـودع كـل ركـن فـيه لشخص أو لشيء ما، فلا يكون الشخص صاحب قلب إلّا إذا صار له قلب متيقظ لا يداخله سوى ذكر الله والله غيور لا يجعل للغير مقراً في داره وهو قلب المؤمن ونعلم أنه:

---

١ ـ سورة الحاقة، الآية ٣٢.

٢ ـ سورة المنافقون، الآية ٩.

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[1].

فلتعلمن أن الهدوء لا يحصل إلّا بقلة الطلب خلافاً لما يتصوره الناس فاصغ متأملاً إلى كلام أحد الائمة عليهم السلام يخاطب هشام بن الحكم قائلاً:

«يا هشام! من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين فليتضرع إلى الله في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه ومن قنع بما يكفيه استغنى. ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام! إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام! إن العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض».

***

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٤.

## استمع إلى كلام آخر عن الزهد:

الطريق ما زال طويلاً ومركبتنا قد تتهاوى إعياءً. فما بالك أراك تزيدها ثقلاً وقد تعجز عن ايصالك إلى المنزل المطلوب!

فالقلب تجده تارة أسير الدار وبرهة مشغولاً بالمال والعيال، وحيناً سكير الحب السامي وفي طور آخر منهمكاً إلى حد ما بالمساومة. وإذا به يفاجأ أن الزمان قد مضى وأن مجال العمر قد انقضىٰ.

استمع إلى الامام موسى بن جعفر عليه السلام ماذا يقول:

عن هشام بن الحكم عن الامام الكاظم عليه السلام قال، قال عليه السلام:

«يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة. لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة. فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه. ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة. فيأتيه الموت، فيفسد عليه دينه وآخرته»[1].

أحلف بالله يقيناً أنه لو انزاح الستار عن حقيقة جمال الدنيا لتجدن مالها وزخرفها ثعابين تتسلط عليك بلسعاتها، وبساتينها مراتع للأشواك

---

١ ـ مستدرك الوسائل، ج ١٢، الميرزا نوري، ص ٤٨.

وطواويسها نسوراً. فإن التفت إلى ذلك منذ الآن سوف يـذهب عـنك ولعك بها فتزهد فيها.

فأنت الذي شحب وجهك وتضج صارخاً من انعدام النصير إذا مـا تمت مراجعة حساباتك فكيف لا ترهبك محاسبة يـوم القـيامة وأنت تنوي الوقوف إلى جانب ميزانها خاوي اليدين.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ:

«اعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين، ولا تنشر لهم الدواوين. وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً. وإنما تنصب الموازيـن وتنشر الدواوين لأهل الاسلام».

إجهد لتتزود من الدنيا كفاية وأنت تتمتع بخفة ونشاط أكبر كـلما ازددت قناعة في طلباتك: اعتق قلبك من التمسك بما تملك تأمن الألم عليها عند فقدانها

سئل الامام علي ﷺ عن الزهد والزاهد فأوضـح أن مـعناه التـام يتجلىٰ في الآية:

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[1].

فمثل هذا الشخص ينعم بالطبع بهدوء دائمي لأنه يرى ما يـحسبه الآخرون جبالاً، قشاً متناثراً، فهامة نفسه متعالية لا تـعصف بـها كـل نسمة كالصفصاف. فطوبىٰ له سروره.

فلنذكر ما قاله الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في هذا السياق وهو

---

١ ـ سورة الحديد، الآية ٢٣.

يقسم الناس إلى فئات ثلاث:

«إنما الناس ثلاثة: زاهد، وراغب وصابر.

فأما الزاهد فلا يفرح بشيء من الدنيا أتاه ولا يحزن على شيء فاته.

وأما الصابر، فيتمناها بقلبه، فإن أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها.

وأما الراغب فلا يبالي من حل اصابها أم من حرام»[١].

فخليق بطالب الهدوء أن لا يتخلى عن الزهد ولو لم تبلغ هذه الحقيقة مرامي التصديق عنده، فليستمع إلى كلام حبيب الله محمد بن عبد الله ﷺ وهو يؤكد:

«الزاهد في الدنيا، يريح قلبه وبدنه، والراغب فيها يتعب قلبه وبدنه»[٢].

وقال ﷺ:

«من زهد في الدنيا، هانت عليه المصيبات»[٣].

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠، ص ١٢٠.

٢ ـ ارشاد القلوب للديلمي، ج ١، ص ٥٥ عن روضة الواعظين، ص ٤٤.

٣ ـ كتاب سليم بن قيس، ص ١٧٦ والغارات، المجلد ١، ص ١٤٠.

## «تجنب المعاشرة العابثة»

جانب من تشوش البال يعود للمعاشرات العابثة التي تـقتل الوقت وتفني العمر وتهدر الفرص.

انظر في فرصة يومك بساعاته الأربع والعشرين. كم منها انقضى في معاشرات لم تجدِ لك نفعاً حتى وإن كانت في غير معصية.

قضيت ساعات وساعات في نقاش وجدال أو منشغلاً بقيل وقال. والعجيب أنك في خلواتك أيضاً تعود إلى ما مضى وتفكر بما قيل وما سُمع، وفي غير خلواتك تحادث الآخرين عن تلك الأقاويل.

فالعمر إن قضيته عـلى هـذا المـنوال، حـدثني، إذاً، مـاذا تكـون حصيلته؟!

إنك من بعض الاستهانات مستاء ومن كلام ما منزعج، زيد لم يلقِ عليّ السلام! فإلى متى تغالبك هذه السذاجة؟! هكذا هي حال صلاتك وكذلك ذكرك. كلها ضحية لمداهمات هذه الأفكار. فأين هو الهـدوء وفراغ البال؟

قلل من مثل هذه العلاقات. واندفع إلى الاختلاء والتفكير. لا أقصد أن ترتاد غاراً بل أن تنشغل بعمل ما، عمل ايجابي، لا تقضي فيه العمر هدراً. فليس خليق بالمعاشرة إلّا من يزيدك نوراً ويضيء دربك بمصباح معرفة، ويقدم لك نصيحة ويأخذ عنك أخرىٰ، يشاطرك هماً ويكون لك أنيساً.

فما أعظم خطأ من قال: اعرض عن مثل هذه العشرة.

دعني أخبرك أن الجاهل لا يرفدك إلّا جهلاً والمتكدر إلّا كدراً وأصحاب القلوب الحالكة إلّا تمويهاً. ولا يأتيك الاختلاط بأهل المعاصي إلّا بنار تتلظىٰ فيها. إذاً، التزم بما نوهت لك به الآية:

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾[1].

وردد:

«يا خير حبيب ومحبوب، يا خير مؤنس وأنيس، يا خير صاحب وجليس».

فهو خير ناصر وأنيس، فإن صرت تستأنس به تستغن عن غيره وتكتف بأنسه.

إصغ إلي أخبرك بما خاطب به الله سبحانه وتعالىٰ رسوله ونبيه ﷺ ليلة المعراج:

«.. اسكنتُ قلبه حباً حتى اجعل قلبه لي، وفراغه واشتغاله وهمه

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٠.

وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي، وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي.

واضيّق عليه الدنيا وأبغض اليه ما فيها من اللذات واحذره الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، وإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً وينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن»[١].

تارة ينفخون فيك كما شأن القصاب بذبيحته لتغدو ضحية الاغترار بالذات،

وتارة يجرّونك إلى لغو الحديث بالمزاح والهزل لتقضي وقتك مرحاً،

وتارة يتحاملون عليك بجرأة وعنف ليلقوا في قلبك حزناً،

وتارة يشاركونك أسرارك ليدأبوا عند غيابك فيها إعلاناً،

وحيناً يزينون لك دنياك ليلقوك في لجة الحسرات مهموماً،

وحيناً يردعونك في مواعيد الصلاة عما يكون منك تضرعاً،

وحيناً يفتحون بوجهك للإثم باباً. فما الداعي لمثل هذه المعاشرات؟ وما ثمرة هذا الاتلاف للوقت؟! إصغ إلى حديث للإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث يقول:

«يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوة العقل. فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها ورغب فيما عند ربه، وكان أنسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزه في

---

١ ـ ارشاد القلوب للديلمي، ج ١، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

غير عشيرة»[١].

ولكني اعلم انك اليوم صرت في مقام لا يغرنك فيه شيطان بمعصية ولا يدعونك إلى ما كان من الكلام لغواً. فهذا المحتال يعرف بم يهمس في آذان كل شخص. سوف يقول لك: انهض وصل رحماً. وإن كان عقلك يحكم بشأن هذا المجلس بأنه لغو وللوقت إهدار.

سوف يقول لك الشيطان: تعهد بنفسك باختيار حديث المجلس وكن المتحدث فيه لعلك تهدي أحدهم إلى سبيل الخير. رد عليه: حدثت أمثال هؤلاء حتى الآن كراراً ومراراً، كم من مرة ارتقيت لهم المنابر أو ألقيت عليهم المواعظ والخطابات. فماذا غنمت من نتائج؟ لا تشوه وجه الموعظة والعبرة. أيم الله أنك لن تحمل نوراً إلى مجلسهم بل تحمل منها ضيقاً وانكداراً. فواجبك حدده لك باريك في الآية:

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٢].

ليتك تتأزر بما تنسجه للآخرين فتجعل لنفسك نصيباً مما تقدمه لهم من مواعظ وإن كان قليلاً. اعرض على نفسك شيئاً من تلك العبر عساك أن لا تكون ممن تذكرهم الآية:

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، اولئك هم الفاسقون﴾[٣].

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١، ص ١٣٧ و ١٣٨.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ١٠٥.

٣ ـ سورة الحشر، الآية ١٩.

كم من مرة وجدت نفسك تفكر بما يؤول إليه مصير ولدك بعد أعوام عشرين ولكنك لا تفكر قط بأول ليلة ترقد فيها في لحدك. فقد يكون وشيكاً جداً. أليس كذلك؟! وا أسفاه على هذه الغفلة! وما تليها من حسرة! وما تعقب الحسرة من ظلمة والظلمة من مشقة.

فيا عزيز النفس!

إجهد لتُحسن استغلال دقائق العمر. لا سيما لو كنت تتجاوز الأربعين فإنك في مسيرة هابطة. تشبث بهذه اللحظات الأخيرة. أحكم قبضتك عليها لتصون ذاتك من هوس إهدار الوقت والعبث. إلق نظرة على مرامي بصرك في الآفاق، فشمس العمر آيلة إلى الغروب. أما عددت مصباحاً تنير به ظلام ليلك؟

ولما كنت قد جئتك في الكتاب الأول ببابيه ببحث «المعاشرة» لا أكرره عليك ثانية. ذُكر أنه لابد من مقدمات لتحقيق فراغ البال والهدوء وتركيز البال. حدثتك عن اثنتين منها: الزهد وتجنب العلاقات العابثة. فتلق عني ثالث دواعي فراغ البال:

## «الصمت والسكوت»

قال تعالىٰ:

﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[1].

كيف لك أن لا تتوجس خيفة من هذا الرقيب العتيد، فلا تمعن التفكير فيما تتفوه به؟

فلو نطقت متفكراً يقصر كلامك شئت أم أبيت، فكلام الأبرار قصير وسديد، يملأ العالم قليله. ولك أن تصبح في زمرتهم إن كنت راغباً.

جاء عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«من علامات الفقه (أي الفهم والإدراك): الحلم والحياء والصمت. إن الصمت باب من أبواب الحكمة، وإنه ليكسب المحبة ويوجب السلامة وراحة لكرام الكاتبين وإنه لدليل على كل خير»[2].

---

١ ـ سورة ق، الآية ١٨.

٢ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد ١، ص ٢٠٣، نقلاً عن قرب الاسناد ٣٦٩، ح ١٣٢١.

ربما نطقت ذات مرة بعبارة بين جماعة أوقعتك في ورطة لأيام وسلبتك فراغ البال فيها.

ربما رُدّ عليك قول واحد (منك) بمئات الصياغات.

وتلقيت من كلام واحد آلاف النداءات.

ربما عرضت بحثاً زجرجت به جماعة في مدلهمات الجدال.

إذاً، اطبق شفتيك لتكون في مأمن من آلاف الفتن.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«قال لقمان لابنه:

يا بني! إن كنت زعمت أن الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب».

اسمع هذه الموعظة عن رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

**«امسك لسانك فإنها صدقة تصَّدق بها على نفسك»، ثم قال:**

**«ولا يعرف عبد حقيقة الايمان حتى يخزن من لسانه».**

كتبت لنفسي وصفة احتجزت بها كثيراً من كلامي في حلقومي ودفنته هنالك فما بلغ لساني. أَوَ تعلم ما هي هذه الوصفة القيمة؟ كلما نويت التفوه بكلام ما خاطبت نفسي: وهل يرتبط بك هذا؟ فوا عجباه! الكثير من الكلام لا ارتباط لي به. إنه فضول لا غير، لغو ولهو.

فيا ايها العزيز!

كلنا مسؤولون عن أعمال كثيرة. اترك حديث الآخرين. انشغل بذاتك فقد جاء في أحد الأحاديث الشريفة:

«طوبىٰ لمن صمت إلّا بذكر الله».

وقال رسول الله ﷺ:

«ما من يوم إلّا وكل عضو من أعضاء الجسد يُكفِّر اللسان يقول: نشدتك الله أن نعذب فيك».

لابد لك من المعرفة والحكمة زاد لتلتحق بأهل المراقبة والتـفكير. وليس في هذه المقامات ما يكون بذي انسجام مـع الجـدال والقـيل والقال. تأمل في حديث لرسول الله ﷺ حيث يقول:

«إذا رأيتم المؤمن صموتاً، فادنو منه فانه يلقّى الحكمة»[١].

وكذلك في كلام لأبي ذر الغفاري (رض)، جاء:

«يا مبتغي العلم إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر. فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك».

كما يروى عن الإمام على بن موسىٰ الرضا عليه السلام أنه قال:

«كان الرجل من بني اسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك عشر سنين».

فلو كنت ممن تهيمن عليه طبيعة انطلاق لسانه دون استئذان قلبه، أرهف السمع لأذكر لك وصفة أخرى: احتجز لسانك دون هذا الطابع، ولكي لا يعتريه ملل لقنه طابعاً آخر.

عوّده أن يكون بالذكر دوماً ملتهجاً. فهذه العضلة الحمراء لا تقوى، رغم نشاطها الدؤوب، على أن تؤدي عملين في آن واحد. خذ هـذه

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١، ص ١٥٤.

الوصفة عن أحد المعصومين عليهم السلام، حيث يقول:

«لا تكثروا الكلام، بغير ذكر الله، فان كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب. إن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

فلتعلمن أن السكوت إنما جُعل سنة حسنة، تارة لتجنب الهفوات والآثام (وهو ما يليق بكل سالك ومبتدىء) وتارة باعتباره أحد آداب المجالس كالتزامه عند تلاوة كلام الحبيب، وهو القائل:

﴿وإذا قُرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾[1].

أو عند الجلوس إلى العلماء والعرفاء، فانك لا تنتفع منهم إلّا إذا صمتَّ والتزمت السكوت عندهم. وكلها وسائل تأخذ بيدك لمجالسة المحبوب. هنالك يظهر لك الحضور والشهود فتستسلم للصمت مسترسلاً أو عن عمد. هذا هو مقام الهيبة.

يقول تعالىٰ: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً﴾[2].

عساك أن تكون بلغت المقام الأول فيجرك لهذا المقام. فأنت لو لم تحقق الأول لا يوصلك ربك إلى هذا المقام. آلِ على نفسك أن لا ترعى أدب الصمت فيما يظهر من حالك بل في باطنك أيضاً فربما تكون ظاهرياً بالصمت ملتزماً وباطنك يصطخب صراعاً نفسياً. فالاختلاء الباطني ميسور مع الصراعات الخارجية ولكن بم تتحصن من قلقلة النفس.

---

١ ـ سورة الاعراف، الآية ٢٠٤.

٢ ـ سورة طه، الآية ١٠٨.

ونحن في بحثنا هذا نريد إخماد قلقلة النفس وكبح صراعاتها، لعلك تحصل بذلك على الالتفات والتركيز.

وأخيراً استمع إلى كلام الائمة ينطق به سادسهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، آتيك به من كتاب مصباح الشريعة:

«الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجفّ القلم به وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة وفيه رضى الله وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل، وقد جعله الله ستراً على الجاهل وزيناً للعالم ومعه عزل الهوى ورياضة النفس وحلاوة العبادة وزوال قسوة القلب والعفاف والمروة والظرف. فاغلق باب لسانك عما لك منه بد منه لا سيما إذا لم تجد أهلاً للكلام في المذاكرة لله وفي الله. وكان الربيع بن خيثم يضع قرطاساً بين يديه فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه في عشيته ما له وما عليه. ويقول آه آه نجا الصامتون وبقينا.

وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يضع الحصاة في فمه، فإذا أراد أن يتكلم بما علم أنه لله وفي الله، ولوجه الله أخرجها من فمه، وإن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتنفّسون تنفّس الغرقى، ويتكلمون شبه المرضى، وإنما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت. فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وصوابه وعلم الصمت وفوائده. فإن ذلك من أخلاق الأنبياء وشعار الأصفياء، ومن علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت، ومن أشرف على ما في لطائف الصمت وائتمنه على خزائنه، كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطّلع على عبادته إلّا الملك الجبّار».

## «الشكر و تقدير النعم»

ومن دواعي الهدوء النفسي الأخرى، التفكير بما نملك لا التحسر على ما لا نملك. أجلس يوماً ودوّن على الورق كل ما عندك من نعماء الله ثم ما تفقده منها. أحصها لتبين حال الألطاف الالهية في ذمتك. ولكني قبل كل شيء لا أحسبك قادراً على عدّها.

هذا ما يؤكده لك الله عز وجل في الآية:

﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، إن الانسان لظلوم كفار﴾[1].

رأيت شخصاً أعرفه كأنه كان دائم البكاء، الدموع لا تفارق مقلتيه على الدوام حتى اختلت باصرته وفسد جماله وأُحلكت حياته. وبعد سنة من العناء تبين أن منفذ الدموع الذي أقره الله في العين لتسرب الرطوبة الزائدة مغلق في عينيه. وبجراحة صغرى تم فتحها وراح عنه عناؤه. منفذ بمنتهى الصغر هو بمثابة ساقية الماء في عينيك، ينال العينين والوجه النصب إن أُغلق. بل كل شريان وشعيرة دم في جسمك

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ٣٤.

إنما هو نهر جار أنعم به عليك ربك الباري. فهل ما زلت تشتكي فقرك الحالي؟ افتح عينيك وانظر بكل امعان، هل تجدن في ركن وذرة من جسمك نقصان».

ربك ينصحك:

﴿فارجع البصر هل ترىٰ من فطور﴾[1].

***

لا تقل انني في المال والمنال أدنىٰ شأناً من فلان وفي السلامة أقل حظاً من بهمان. تحدث عما تملك من نعم الله.

ان نعماء الله أغرقتك بالفعل. أما ما نراه من افتقار للمال فحدثني كم هو وكم ألف ضعفٍ تملك؟ بكم تبيع عدستي عينيك؟ ماذا عن أذنيك؟ كم تقدر للسانك ثمناً؟ بم تحدد ليديك وساقيك سعراً؟

أحدثك يا من تتصفح دفتر حسابك! أما تأملت في غنى من الله منحه إياك دون كسب واعياء بل وهبك إياه منذ بداية حياتك دون طلب ورجاء لترىٰ فعل ألطافه فيك ومظاهر فضله عليك؟!

يا من أمطرتني بفضلك من كل باب.

يا من سقيتني شراب حبك من كل كأس

يا من أذقتني نعيمك من كل مائدة

يا من أغدقت عليّ بمنّك من ألف يد ويد.

---

١ ـ سورة الملك، الآية ٤.

كيف لي أن أكون عن كل هذا من لطفك غافلاً، أرحل عن هذه الدنيا، الزاهرة بنعمك، متجاهلاً؟!

فكم لك أن تدمي القلب حسداً؟ وإلى متى تذيق النفس حطة ونكداً؟ انظر كيف لك من كل هذه النعم حالاً؟

فأنت إن كنت لمعدة سليمة صاحباً تنال بأزهد الطعام شبعاً.

وإن كنت عطشاناً لك بكأس من الماء ارتواء.

وإن كنت صاحب ذوق مرهف لك برؤية سندان ورد لذة.

فتصور:

أمامك مائدة زاخرة بكل نوع من النعم وأنت من قرحة بالمعدة في لوعة وألم. فما حظك من مثل هذه المائدة؟

ماذا لو أُمطِرتَ في حديقة غناء بالأزهار، ولكن قلبك في مثل قلعة ظلماء وهو منها في ضيق واعتقال. هل تنقذك روعة جمال خارجك من لوعة باطنك؟

إن كنت لكلامي غير مقتنع فاستمع إلى صدى النبوة يتردد عليك من جهة الإمامة:

يروي الامام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه أكّد بأن من يُصبح وله ثلاثة أشياء تمت له دنياه: الجسم السليم والعيش في أمان ونفقة ذلك اليوم. ولو كانت له نعمة رابعة لتمت له نعمة الآخرة أيضاً، إلّا وهو الاسلام.

إذاً، ردد في نفسك: الحمد لله. فماذا تطلب بعد كل هذا؟ إمض هانئاً

وعش ملتذاً، فليس لك في رغدك ندٌ في الدنيا.. لو كنتَ راغباً أن يعود عليك بالأجر تمتعك بالنعم وبالثواب سرورك وبراؤك من السقم، طبّق ما أمرك به محمد ﷺ.

«الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطي الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع».

والملفت انك تستزيد النعم على طول وتطلب الأكثر منها فالأكثر. فإن رجوت المزيد من الله فإنه يقول:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1].

ورسوله يذكر:

«ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة».

فيا ايها العزيز التائب! قسماً بنفسك الغالية أن الله يحبك. وهو مُستقبلك والمقبل عليك في آن واحد شرط أن تكون أذن صاغية لكلامه. يريد الإغداق عليك بعطائه ويحثك لتوفر لذلك سبباً فما أبسط ما حدده سبباً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنة ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله فيوجب الله عز وجل بها له الجنة».

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ٧.

كل ما انساق من كلام عن الشكر إنما هو لضمان سعادتك. وأنت لفراغ البال متقصياً وللسعادة طالباً سوف تعثر على كل مطاليبك فـي هذا الملك.

***

في مدينة لندن ضاقت الدنيا بأحد المواطنين فخرج من داره ينوي الانتحار. شاهد في الطريق رجلاً مبتور الساقين يجلس عـلى لوحـة خشبية ذات عجلات صغيرة يضع يديه على الأرض ويمشي متحركاً على هذه الحال. فقرر في نفسه أن ينهي حياته فـي تـلك اللـحظات الأخيرة بأداء عمل خيري. استأذن الرجل بأن يعينه في عبور الشارع إلى جهته الأخرىٰ ساحباً عجلته.

قال الرجل: اشكرك، ولكن اسمح لي أن أحرك عجلتي إلى جانبك. سائقو السيارات لا يرونني:

صار المواطن يسير بخطىء وئيدة والرجل يحرك يديه على الأرض متقدماً إلى الأمام. انتابه الحزن حتى غـرق فـي هـم الرجـل مـبتور الساقين مما أنساه همه. في الجهة الثانية من الشارع حيث عم الحزن كيانه بأسره، خاطبه الرجل العليل وابتسامة شكر تعلو شفتيه: ما اجمل طقس اليوم! انظر الى السماء. ما أروع الغيوم! وما ألطف الجو!

أقصىٰ المواطن الحزن عن نفسه، فقد لقنه مـبتور السـاقين درسـاً جديداً أن: نعم، حتى لو كنت فاقداً لنصف جسمك بإمكانك أن تـنعم بالسعادة وأن تعم اللذة وجودك.

وبعد تغيير قراره عاد إلى منزله مسروراً وقال لزوجته:

ـ في عالم ينعم فيه مبتورو السيقان بلذة العيش حتى نهاية حياتهم، لِمَ يتقص أصحاب السيقان الموت؟

***

﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾[١].

يامن قوتك من فضله، وعلمك من فيضه، وبصرك من بصيرته، وسمعك من سمعه، فهل إلى غيره تقدم طلباتك؟

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة، قليلاً ما تشكرون﴾[٢].

ظل الرؤوف على رأسك مستدام دون انقطاع، ويد الكريم معطاء لك دون امتناع. فضله للجميع مبذول عام. فعلامَ يتشوش بالك ويضيق حالك؟

أما تعلم:

﴿إن اللهَ لذو فضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[٣].

ولكي لا تكون من هذه الجماعة ردد: «شكراً لله» و «الحمد لله حمداً دائماً سرمداً».

تروي عائشة زوجة النبي ﷺ، أنه ﷺ استيقظ ذات ليلة وهو

---

١ ـ سورة النمل، الآية ٤٠.

٢ ـ سورة السجدة، الآية ٩.

٣ ـ سورة المؤمن، الآية ٦١.

إلى جانبها فتأملته لترى إلى أين يقصد، فرأته يحمل قربة ماء ثم توضأ وبدأ الصلاة وبكى حتى تساقطت الدموع على صدره الشريف فصار يبكي في ركوعه وسجوده أيضاً. هكذا حتى أذّن بلال فتقدمت نحوه وسألته علامَ يبكي على هذه الحال وهو البعيد عن الآثام والخـوف. فقال أَوَ لا يكون عبداً شكوراً ثم قرأ الآية: ﴿إن فـي خـلق السـماوات والأرض..﴾.

ايها العزيز! اعذرني إن كنت لا أعلم إلى أين يجرني الكلام، فالغريق يتشبث بكل حشيش، تراني ألجأ إلى القرآن مرة وإلى الحديث أخرىٰ، أحياناً إلى شِعْرٍ من هذا أو ذاك. ولكن صدقني كلما أمسكت القلم لا أحدد ما أبدأ به وما انتهي عنده، فقد ألقى الحـبيب هـذا فـي عـنقي سلسلة يجرني بها، فرافقني إلى حيث تسحبني ارادته. عسـاني أن لا اصحبك إلى مكان سوء. حدد قواك ودعنا نواصل السير بعد ذلك.

***

أفضل الشكر:

الجياع كلهم يجلسون إلى مائدة الكريم لا يحوّلون أنظارهم عـن مائدته، وهكذا حال المحبين مع مضيفهم، فكرمه مبذول عام ولكـنّ لقاء المُنعم فضل لا يبلغه الجميع.

وأعلى درجات الشكر هو أن تعلم أن جميع النعم تتأتى مـن ذاك المنعم، وتقدر أن جميع العطايا منه هو فلا تشرك غيره في أفعاله.

فإن كنت لدرب الود والمحبة متقصياً فلا تدعن النفس تنجرف وراء النعم متناسية المنعم.

دعني ألقي عليك بيتين من شعر الشاعر سعدي الشيرازي:

گر از دوست چشمت به احسان اوست

تو دربند خويشى نه در بند دوست

خلاف طريقت بود كاوليا

تمنا كنند از خدا جز خدا[١]

ومالي لا أذكر مناجاة الإمام السجاد ﷺ شاهداً على كلامي حيث يقول:

«يا نعيمي وجنّتي ويا دنياي وآخرتي»[٢].

ما نريده من هذا البحث هو أن لا يجرك حب النعم نحو ديار المنعم. فأنت لو كان تعاملك مع المُنعم فسوف تذوب في جماله وكماله حتىٰ تغفل تماماً عن نعمه ولتصف نعمه وتشكره عليها يلتهج لسانك بالثناء عليه وبحمده. حيث يقال أن شكر العلماء على اللسان وشكر العبد في الأعمال وشكر العرفاء في الثبات على التطلع إلى الجمال. ومن مراتب

---

١ ـ معناهما:

ـ «إن كانت عينك تتعلق بالحبيب طمعاً في إحسانه، فأنت عبد نفسك لا عبد ربك».

ـ «فليس من آداب الطريقة أن يريد الأولياء من الله سوى الله».

٢ ـ المناجاة الخامسة عشر.

الشكر المتقدمة أن تفهم عجزك عن الاتيان بالشكر حق قدره.

لا أجدني أعرف أفضل من كلام الشاعر سعدي في هذا المجال. إنه يقول:

«كل من الانفاس يمنح الحياة عند سحبه وينفّس عن الذات عند طرحه. إذاً، في كل نفس نعمتان. وكل نعمة تستوجب شكراً. فمن ذا الذي يمكنه أن يحسن أداء حق شكره بيده ولسانه؟!»

ويقال أن شكر كل نعمة لابد أن يكون بالانفاق من نفس النعمة، فشكرك على الثروة يكون بالانفاق من المال وعلى المزروعات بالانفاق من الثمار وعلى سلامة اللسان والنطق بذكر الحق تعالى وعلى قوة اليد بالإسناد وعلى نور العين بستر العيوب. فقد قال عز وجل:

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾[١].

ومن الشكر أن لا تستغل نعمة الحق تعالىٰ في معصيته. يروى أن غلاماً قرر التزوج في صدر الإسلام فما طرق باباً إلّا رُفِضَ حتى قصد دار أحد الائمة عليهم السلام فلقي فيها عزاً وكُرم وزُوج ابنة أحد الوجهاء وبلغ من السعادة ما لم يكن يحلم به في المنام.

وفي ليلة الزفاف بسط سجادته وراح يناجي ربه حتى الصباح. هكذا جعل يقضي ليلته التالية وما أعقبها في الليلة الثالثة فشكاه أهل الفتاة إلى الإمام عليه السلام. فلما دعاه إليه أجاب أنه لم يكن حتى أيام مضت

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣.

بمالكٍ لا لدينار ولا لدار ولا لزوجة، ويرى الآن أنه خلال هذه الفترة الوجيزة صار صاحب زوجة وثروة وعز، وآلمه أن يعرض عن مثل هذا الرب المنعم مولياً وجهه إلى النعم.

وأنت ايها العزيز! تلق هذا النداء ولا ترض بأقل مما بلغه هذا الغلام شأناً. ولكي لا أضطر لإطالة الحديث مما يلقيك في متاهات الملل والضجر أنهي كلامي عن الشكر بمجموعة من الأحاديث شرط أن لا تنهي أنت انكبابك على شكر المنعم حتى نهاية حياتك.

قال رسول الله ﷺ:

«الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[١].

«من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل».

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

«شكر النعمة اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين».

وفيما أوحىٰ الله عز وجل إلى نبيه موسىٰ عليه السلام:

«يا موسىٰ! اشكرني حق شكري.

فقال: يا رب! وكيف اشكرك حق شكرك، وليس من شكرٍ أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟

---

١ ـ الجامع الصغير، السيوطي، المجلد ٢، ص ١٤٠.

٢ ـ كنز العمال، ج ٣، ص ٢٦٦.

قال: يا موسىٰ! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني».

ويروى عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام قوله:

«ان الله يحب كل قلب حزين ويحب كل عبد شكور».

يقول الله تعالىٰ لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يارب.

فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره. ثم قال:

«أشكركم لله أشكركم للناس»[1].

---

١ ـ أصول الكافي، باب الشكر.

## «القناعة»

خامس دواعي الهدوء وفراغ البال هو التحلي بالقناعة. والقناعة هو الارتضاء بما يسد الحاجة لا بما ينتهي إليه الفكر من توقعات.

حدثتك قبل هذا أن الإنسان وفي كل من شؤون جسمه يلاقي التحديد لا الاطلاق. فعدة أمتار من قماش تكسو بدنه، وسرير واحد يأويه، ووسادة تريح رأسه، وكسرة خبز تشبعه، وجرعة ماء ترويه وتنشطه وبساط يكفيه فراشاً. فكن قنوعاً في جميع الشؤون، فالأكثر حتى لو كان متوفراً، لا طائل منه.

فمن مائة رداء لا ترتدي إلّا واحداً خلال الساعة ولا تفترش أكثر من بساط وإن كان لك منها العشرات. ولو زدت على وسادتك أخرىٰ تلقى صداعاً وعلى طعامك بأكثر من متسع معدتك تغرم عليه أوجاعاً. وجرعة زائدة من الماء في أحشائك تدب فيها انتفاخاً. فيا من يواجه في كل حدب وصوب وازعاً يحددك إلى متى تمد في مائة اتجاه يداً

وتكون بالدلب[1] متمثلاً؟

فيا حسرتاه على الإنسان فكأنه يجهل حقيقة ما في قلبه مكنون من كنز مدفون حيث قال الله تعالىٰ:

«لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن».

فيا أيها المؤمن ما بالك تهمل القلب وتنهك نفسك باهتمامك بالجسم وتطلب آلافاً أكثر من حاجتك؟ تبلغ بتفكيرك مرام بعيدة وأنت في غفلة مما أنت ملاقيه بعده.

قال الإمام علي عليه السلام:

«ابن آدم، ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فان ايسر ما فيها يكفيك، وان كنت إنما تريد ما لا يكفيك فان كل ما فيها لا يكفيك».

فما بالك تأتي على نفسك بالعذاب وبانهدار ماء وجهك في طلب السراب. فاستزادتك تلقيك في عناء كثير. ويا حسرتاه لا يكون لك نفع مما تجني إلّا نزراً قليلاً.

إصغ إلى ما يقوله الإمام الباقر عليه السلام:

«إياك ان تُطْمِحَ بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال عز وجل لنبيه:

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة

---

١ ـ الدلب: شجر عظيم من فصيلة الدلبيات عريض الورق لا زهر له (معجم لاروس)، ويسمى أيضاً «الصنار».

الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[١].

وقال:

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقىٰ﴾[٢]، فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله ﷺ. فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده».

فمالك من هناء على هذه الوتيرة ما دمت لا تقيم لتمنياتك المادية حدوداً. فمهما وهبت تردف: إنما هو قليل. ألا ترغب في حياة رغيدة سارة؟ استمع إلى شرطها من باريك حيث يقول:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[٣].

فهذه الحياة تتوفر لك في ظل القناعة. وأَعِدُك انك لو ارتضيت السكنى في هذه الدار لتعثرن فيها على جنتك في الحياة الأولى:

قال أحد الشعراء:

طلبتك يا دنيا فأعذرت في الطلب

وما نلت إلّا الهم والغم والنصب

وأسرفت في ذنبي ولم أفض حسرتي

هربت بديني منك إن نفع الهرب

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٥٥.

٢ ـ سورة طه، الآية ١٣١.

٣ ـ سورة النحل، الآية ٩٧.

ولم أر حـــظاً كـــالقنوع لأهـــله
وإن يجمل الإنسان ما عاش في الطلب

***

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«من رضي من الله بالقليل من الرزق، قَبِل الله منه اليسير من العمل ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤونته وزكت مكسبته وخرج من حد الفجور».

فبشر الحافي الذي قضى حياته بعد توبته على يد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام حافياً لا ينتعل وجئتك بحكاية توبته في باب (التخلي) من الجزء الأول، كان يرى أن القناعة سلطان لا يستقر إلّا في قلب المؤمن. فلتعلمن أن الفقر الممدوح لا يكون ممدوحاً ونفسك تتحسر على ما يملكه هذا وذاك بل فقر ترضى عنده بالقليل دون أن تطلب المزيد، فالمدقع الكريم خير من الغني اللئيم.

استمع إلى حديث من خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله «لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغىٰ غيرهما وادياً ثالثاً. ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب»[1].

***

حدّث قصاب عارفاً ان يبتاع من لحمه في ذلك اليوم فإنه من

---

١ ـ دراسات في الحديث، هاشم معروف الحسني، ص ٣٥١.

ذبيحة جيدة، فأجابه أن ليس لديه ما يبتاع به، فرد القصاب انه سوف يمهله للدفع، فقال العارف أن مواعدة البطن لأفضل من مواعدة القصاب.

ويروى أن الله تعالى أقر من الحالات خمساً في أمور خمسة وهي العز في الطاعة والذل في المعصية والهيبة في إحياء الليل والحكمة في البطن الخاوية والغنى في القناعة.

فلنعد إلى الرسول محمد ﷺ ونستمع إلى أحاديثه ثانية:

«طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً».

خذ في الحسبان انك حتى ولو ادخرت مالاً على مال وامتلكت الممتلكات ثم أخرى غيرها. أجبني كم لك من كل ذلك لذة ومتعة؟

وقد قال رسول الله ﷺ انه ليس هنالك من غني لا يتمنى يوم القيامة ان يكون قد اكتفا في دنياه بقوت يومه.

استمع إلى حكاية ارسطو مع الاسكندر المقدوني حيث سأله عن وجهته، فأنباه أنه يريد تسخير بلاد الروم.

قال:

ـ وبعد ذلك؟

أجاب:

ـ العراق والشام.

قال ارسطو: ثم؟

فردَّ أنه ينوي الإغارة على ايران وإضرام النار في قصر جمشيد

انتقاماً لسارد.

قال: ثم؟

ردَّ بان الهند أيضاً تدخل في دائرة مراميه.

قال: ثم بعد ذلك،

قال بأن الصين هي الأخرى تدخل في خارطة امبراطوريته.

قال: وبعدها؟

حدثه الاسكندر بانه سوف يكتفي بذلك حيث يكون بوسعه عندئذ أن يكف ويقضي حياة سارة.

ردَّ ارسطو بأن بامكانه أن يفعل ذلك منذ الآن فيجلس ويقضي حياة سارة دون حاجة منه لكل هذه الجرائم وإراقة الدماء.

ما انساق من كلام كان يرتبط بالقناعة في شؤون الدنيا وإلّا فلا قناعة للمحب في طلب قرب الحبيب ولا للعباد في طلب العبادة ولا للعارف في طلب المعرفة. وإن كان لأي من هؤلاء قناعة فإنه يعاني من ضيق في آفاق تفكيره.

فيا أيها العزيز! انت ما دام الجمال الباهر يبهرك تتقصى الزوجة، أما تعلم أن مصير أزهار الرياض هو تحولها في موسم الخريف إلى رماد قمين. فأنت إن كنت بالعقبى متفكراً تجد نفسك بالقناعة متمسكاً ولعناء القناعة مستيسراً.

ولكي لا يلقيك الجمال الحالي في الشدائد ولا يستدرج قدميك اخطبوط الرجيم لتخرج من ملك الرحيم، أمعن التفكير في الأحاديث

التالية وأنت تقرأُها:

المجموع الأولى ينصحك فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قائلاً:

«القناعة كنز لا ينفد»[١].

و «كن قنوعاً تكن اشكر الناس»[٢].

و «ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك وان كنت إنما تريد ما لا يكفيك فان كل ما فيها لا يكفيك».

وعن الحسن بن علي عليه السلام أنه وصف القناعة بأنها أفضل الغنى والتملق بأنه أبشع الفقر.

أما سيد الأحرار الإمام الحسين عليه السلام فإنه كان يقول بأن القناعة تريح الجسم.

واسمع عن ابنه الإمام علي زين العابدين عليه السلام قوله:

«من قنع بما قسّم الله، فهو من أغنى الناس».

واسترشد بقول الإمام الصادق عليه السلام وهو يقول:

«لو حلف القانع بتملكه على الدارين لصدقه الله عز وجل بذلك، ولأبـرّه لعظم شأن مرتبة القناعة، ثم كيف لا يقنع العبد بما قسّم الله له وهو يقول: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾، فمن أذعن وصدقه بما شاء، ولما شاء بلا غفلة، وأيقن بربوبيته أضاف تولية الأقسام إلى نفسه بلا سبب، ومن قنع بالمقسوم استراح من الهم

---

١ ـ شرح ابن ابي الحديد، ج ١١، ص ١٩٨.

٢ ـ شرح ابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٩٩.

والكرب والتعب، وكلما أنقص من القناعة زاد في الرغبة، والطمع في الدنيا أصل كل شر، وصاحبها لا ينجو من النار إلّا أن يتوب.

ولذلك قال: القناعة ملك لا يزول، وهي مركب رضا الله تعالى تحمل صاحبها إلى داره، فأحسن التوكل فيما لا تعطه، والرضا بما أعطيت، واصبر على ما أصابك، فإن ذلك من عزم الأمور»[١]

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٩٨.

# «الرضا والتسليم»

حدثتك أن تبلور بعض الحالات عند العبد لبدليل على أنها متبادلة مع الله عز وجل، مثل قوله ﴿يحبهم ويحبونه﴾ فاسمع مثل ذلك عما جاء في القرآن الكريم عن حالة الرضا أيضاً في الآية:

﴿رضي الله عنهم ورَضوا عنه، ذلك الفوز العظيم﴾[(١)].

فما نصيبك من هذا الحظ؟ لو لم تكن قد نلت منه فاجهد لنيله فإنه خير مملوك ومُحرز. فكلما ازددت رضا عن الله. ازداد رضا عنك. وقد جاء الكلام بمثل هذا في آية أخرىٰ أيضاً:

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورَضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. ذلك الفوز العظيم﴾[(٢)].

وكذلك في سياق الحديث عن حزب الله في موقع آخر:

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ١١٩.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ١٠٠.

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[١].

ولكن أعلم أن الجميع يشعرون بالرضا في أوان السعة والسرور والهناء أما هذا المقام فلا يُحرز إلّا من الرضا عند الشدائد وفي ظروف المحن والمكاره. ويكون مثل هذا الرضا ثمرة المعرفة واليقين بأنه لا يتأتىٰ من فعل الكريم ويد الرحيم وفضله العميم إلّا الرحمة والعز الثمين.

فأنت لو كنت تلاقي في حدث ما «زحمة» ارفع عن حرف (الزاء) نقطة سلطها جهلك على الحقائق فتجد الزحمة تتحول «رحمة». وهذا المقام بالطبع يترافق مع مقام الصبر. فلا يشعرن بالرضا إلّا العبد الصابر الحليم.

فإن كنت في طلب الحَب والنوى مستصرخاً متلوعاً وإزاء لسعة بعوضة صارخاً، أنّى لك أن تشيد صرح قلبك على دعائم الرضا؟

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما أحب العبد أو كره ولا يرضى عبد عن الله فيما أحب أو كره إلّا كان خيراً له فيما أحب أو كره».

طبيبك الحاذق يصف لك دواء، إنه لك علاج بمره وحلوه، وحلوه ومره، وعلاجه نجاة للقلب وفضل من الحبيب.

---

١ ـ سورة المجادلة، الآية ٢٢.

فمن تقيد بمذاق الدواء ليس به داء وأنه لعابث في طلب الدواء، ومن عانى الداء لا يبالي بطعم الدواء.

إلهي! أشدد علينا آلامنا لنغفل عن المذاق، حلوه ومره، وانشر في ربوع قلوبنا نور شمس حبك حتى لا نميز قمرك عن ثرياك.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن أعلم الناس بالله، أرضاهم بقضاء الله عز وجل».

فما عساك أن تفعل إن أبيت التزود بالرضا؟ بم تتشبث؟ إنك ظبي أسير.

فما دام اللجام في العنق لا يتأتى من النزق إلّا عناء الجسم، فاعتبر.

ولما اعتبرت وتطبعت بهذا الطابع تظفر منذ الآن بجنتك الأولى فقد بشرنا الله تعالىٰ أن:

﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾.

جنة تنعم فيها بالهناء والرضا والسرور وهي هنا كما هي هناك.

﴿فهو في عيشة راضية في جنة عالية﴾[1].

وكرر تعالىٰ بشراه في الآية:

﴿وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية﴾[2].

فهل تعلم علامَ يضيق صدرك؟ ومن يبث السرور في قلبك؟ استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول:

---

١ ـ سورة الحاقة، الآيتان ٢١ و ٢٢.

٢ ـ سورة الغاشية، الآيات ٨ ـ ١٠.

«فيما أوحى الله عز وجل إلى موسىٰ بن عمران عليه السلام:

يا موسىٰ بن عمران! ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن. فإني إنما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له وأزوي عليه ما هو شر له لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي. فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري».

***

حافر أنفاق الجبال يتصبب عرقاً في ضراوة حر الصيف صابراً معانياً ليتقاضى أجره مساء، والغواص يلج أعماق البحر ويقاسي في لججه ويزحف من حيث يدري ولا يدري إلى أفواه الحيتان لعله يفوز بالدر، والمعاني من تكلسات الكليتين يرقد على سرير المستشفى ليشقَّ الجراح بطنه ويخلصه من حصىٰ كليته. وللسن المتنخرة ألم من نوع فريد يئِنّ منه صاحبها حتى يتم قلعها فيهدأ روعه. فهل يخيل إليك أن ما جاء في قضاء الحاكم الحكيم يكون أقل حكمة من هذه الأمور؟

لو كنت جاعلاً الرضا والتسليم شرطاً فيما تحدثنا عنها فلِمَ نزقك في حضرة العليم الرؤوف. إعلم أن المطيع ينال بانصياعه ها هنا الهدوء والاستقرار.

وهل تعلم أن الرزايا والمحن التي نزلت بالإمام الحسين بن علي عليه السلام لم يتعرض لها أي من الأولياء والأنبياء؟

الشفاه تحملت لظى العطش،

القلب اصطلى بلوعة الولد الأكبر،

الطفل الرضيع العطشان أعياه العدو بسهامه،

لمح من أنصاره تخبطاً مريراً في برك الدماء،

أبصر يدي أخيه الوفي انتزعت من بدنه الشريف،

قصمت ظهره خيانة أهل زمانه،

دين جده عصفت به أعاصير الحوادث،

حكومة أبيه استولى عليها أقذر الخلق في عهده، ليس هذا فحسب بل الأكثر من ذلك، فما أدراك ما يرىٰ في مرآة سريرته النقية من صور بشعة للشوائب؟ يرى أمواله يستولىٰ عليها ولا يُغض الطرف حتى عن قلادة تلفها ابنته حول عنقها اللطيف.

يرى انقياد فتيات آل بيت رسول الله ﷺ وحريمهم أسيرات، وتشرد زينب وهم يجرونها من مدينة لأخرى.

يرى ابنه العليل منقاداً مكبلاً بالسلاسل والأغلال.

يرى رأسه يعلو الرماح وهو دون ذلك يشاهد أجساد عشرات البواسل تتوسد التراب والرمال وهم يلفظون آخر الأنفاس، ويترنمون بعبارات يودعون بها الحياة. هل يتفوهون بألفاظ مثل: آخ، آه، أف لك يا دهر، يا ويلتاه، دحرت يا دهر، و...» لا وألف لا، ليس شيئاً من هذا.

فانظر في آخر عبارة نطق بها إمامك، مَهْضوم الحق، الحسين عليه السلام:

هل تعلم ما قال:

«إلهي رضىً بقضائك، تسليماً لأمرك لا معبود سواك».

إنه هو ذاك الذي رأى أباه علياً عليه السلام بعد أن شج رأسه بسيف مسموم يقول:

«فزت ورب الكعبة».

إنهم أسوتك من خيرة خلق الله على مر الدهور. فهلا تريد أن تقفو أثرهم؟ حدثني إذاً، كيف سلوكك مع محن الله وقضائه؟

يقول الشاعر مولوي:

عاشقم بر قـهر و بـر لطـفش بـه جـد

اى عجب من عاشق اين هر دو ضد[1]

نعم هذا هو نهج أحباء الله إزاء الصعاب، فـالطريق طـريق الحب، فاعلم! قضاء الله ساري المفعول في العالم وفيك سواء كنت به راضياً أو له كارهاً. أمر الله نافذ ولن تجني من نفورك نـفعاً أمـا إذا تـقلدت الرضا والتسليم إزاءه فإنك مهدت لنيل سعادتك. فثمرته في هذه الدنيا حسنة، وفي الدار الآخرة حسنة. ألم تسمع أن الله يربط ذكـر جـنته برضوانه؟ أي أن ترخيصة ورودك بابها تتوقف على رضا الله عز وجل عنك. أما ثمرته الأخرىٰ فاستمع إليّ آتيك بنبئه من حديث المـعراج حيث قال الله تعالى لرسوله الكريم:

---

١ ـ معناه:

ـ «حقاً شغفت حباً بتعنيفه وبلطفه فوا عجباه مني أنا عاشق كلا الضدين».

**«.. فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وحبّبته..»**.

فهل تتقصى أكثر من هذا مكانة وتطلب أعذب من هذا شراباً؟ دع يد ربوبية رب العالمين تفعل بك ما يفعله مقراض البستاني بأزهاره إن ترك ثلمة في غصن منها نما منها من البراعم أضعافاً.

واعلمن انك لتعجز أن تطأ بساط الحب إلّا إذا بلغت مقام الرضا قبل ذلك. فمن المستحيل أن يكون المحب لفعل حبيبه كارهاً!

فأنت بحسب الآية الأولى عندما ترىٰ قلبك راضياً عن ربك تـنبه إلى أنه هو أيضاً راض عنك.

فانظر واختر ما يرضاه ويختاره لك. إياك أن تتزمت لما ترضاه فرضا المؤمن لا يكون إلّا في رضاه.

وأول مرتبة على سلم الرضا هو التزامك الحلم إزاء محنه، واثقاً انك (من تحملها) للثواب مكتسب. هذا هو مقام المبتدئين.

وثاني المراتب هي مرتبة استيلاء المعرفة والحكمة عليك، وأن تعلم أن يد الحكيم لا تفعل بك إلّا ما يكون فيه الحكمة، وأن ترضى به وتستسلم له لأنك ترى فيه صلاحك.

والثالث هو حال الوالهين المبهورين بقبسات من نور جماله، وهم في غفلة عن أنهم شغفوا حباً به إلى هذا الحد حتى نسوا أنفسهم. وإن لم تكن بمثل هذا مصدقاً استمع إلى قول الله تعالىٰ يحدثك عما فعل

هذا الجمال بالغافلين، فكيف بالواعين؟

﴿وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾[1].

يروى أن النبي عيسى ابن مريم عليه السلام مر بجذامي متألم انكسر له عظم وهو يحمد الله على أنه فضله على الكثير من المخلوقات. تساءل النبي عيسى عليه السلام يخاطب العليل المتألم وعلى مَن مِن الخلائق فضله. فقال بأنه فضله على مَن لم يذق لذة معرفته والاستئناس به وقد وهبه حظاً منها وهذا ما يكفيه. مسح النبي عيسى عليه السلام يده على الرجل فتماثل للشفاء وصار يتعبد إلى جانب روح الله عليه السلام.

وأنت كذلك إن منحت مُلك المعرفة فقسماً باسمه العظيم قد وُهِبت خير نعم الكريم. فلا يحزنك ألماً. فمعرفته دواء لكل داء.

أما إذا أشحت بوجهك عن ملكه السرمدي، فهل تعلم إلى أين ينتهي بك السبيل؟ استمع إلى القرآن يخبرك:

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾[2].

وإن ارتضيت فعل الله فيك، فحدثني هل لك بعد ذلك همٌّ يعكر صفوك؟ فما أهنأ قلباً رضي برضاه.

ينصحنا أحد العظام أننا إن كنا في كسب رضاه راغبين فما علينا إلّا أن نكون بدواعي رضاه متمسكين. فما أسدد قوله!

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٣١.

٢ ـ سورة يونس، الآية ٧.

فأكثر حالات الاستياء وانعدام الرضا يولدها انعدام المعرفة حيث يحسبون مظاهر الاختلاف في العالم تـميزاً غـير عـادل. والشـخص بالتالي يستاء من نصيبه وقد يؤول مصيره إلى الكفر جراء عدم رضاه.

فحسبك من الله أنه حدد الرضا والتسليم سمة للـمتلهفين لوصـاله وشرطاً لبلوغ دياره في الآية:

﴿... ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾[١].

ويا ايها العزيز! إن تمعن التفكير فإنك تجد في عدم الرضـا شـركاً خفياً وحرباً مع الله. فما يحدث وما يحصل إنما هو من فعله ومنبعث من إرادته ومشيئته. وأنت تريد أن تعترض على ارادته وتفرض إرادة نفسك. فكيف لك ان تتحدث مع هذه الحال عن ايمانك؟! ولتزداد رضا أولِ الحديث التالي، وأنت تقرأه، تركيزاً أكبر:

قال رسول الله ﷺ:

**«عجباً للمؤمن لا يرضى بقضاء الله. فوالله لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلّا كان خيراً له».**

وأخيراً استمع إلى كلام من الإمام الصادق عليه السلام لتردعن نفسك عن النزق على مر حياتك وترضى من قضائه وقدره بما ارتضى لك وتأتيه شكرك لكل مصاب يلحقك. فهذه هي الحياة السرمدية:

«صفة الرضا أن يرضى المحبوب والمكروه.

والرضا شعاع نور المـعرفة والراضـي فـان عـن جـميع اخـتياره.

---

١ ـ سورة الفجر، الآية ٢٨.

والراضي حقيقة هو المرضي عنه. والرضا اسم تجتمع فيه معاني العبودية. وتفسير الرضا سرور القلب.

سمعت أبي محمد الباقر عليه السلام، يقول:

«تعلق القلب بالموجود شرك، وبالمفقود كفر وهما جناحان من سنة. وأعجب بمن يدعي العبودية لله كيف ينازعه في مقدوراته، حاشا الراضين العارفين عن ذلك».

## «التوكل»

كان لك رجاء وهو هدوء البال، ليكون بوسعك وأنت تستظل به أن تلتحق بملك ذكر ربك وتستأنس به. أخبرتك انه لابد لك من حيازة سبع دعائم رصينة لاكتساب هذه النعمة الوفير. فما زلت أملأ الصفحات وأنا أخشىٰ أن أكون قد أفلتُّ زمام كلامي. فأعود لأمسك به. فاصغ إليّ وأودع ما أقوله في بالك.

أردتك زاهداً لا تترك ساعات عمرك الثمينة تذهب سدىٰ،

أن تقصر حبل كلامك وتكون له موجزاً،

أن تكون لقدر ما تتمتع به من نعم عارفاً،

ولنعماء ربك وألطافه شاكراً،

وبحياتك وشؤونها قانعاً،

ولما تفعل بك يد ربك راضياً،

هذا ما حدثتك به حتى الآن.

فاعلمن أن الدعامة السابعة هي دعامة التوكل.

اعلم انك محب للاستناد لا سيما وأنك مضيت معي درباً أصابك بالتعب وتميل لاسناد ظهرك إلى مسند، ورأسك إلى وسادة. تجدك راغباً في بعض الأحيان للاتكاء ولما لا تعثر على شيء ترضى بالجدار ولكنك سرعان ما تتخلى عنها جميعاً، فالجدار يشعرك بالبرودة والوسادة لا تقوم إلّا بما فيها من ريش والمسند إلّا بما فيه من قطن و....، لا ترض لك مسنداً غيره فانه خير مسند ومعين:

﴿أليس اللهُ بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه﴾[١].

إنه هو خالقك وهو بارئك من النطفة إلى ما بلغته، وهو مصورك وأنت في رحم أمك، ومنميك تسعاً من الشهور قضيتها في دار ظلمات، وهو الذي رزقك العقل والذكاء وسائل لمعرفتك، وهو الذي منحك السمع والبصر والنطق. فهل لك وجهة تفر إليها غير دياره؟

﴿فأين تذهبون﴾[٢].

لا تجدن في غير وجهته إلّا الجفاء وفي جانبه إلّا منتهى الوفاء. لا تلقى هنالك إلّا الإعياء وهنا ترفدك رحمته بالنعماء. تذوق في الجانب الآخر كل ذل وفي هذا الجانب ذروة العز. هنالك تتجرع الظلم بأنواعه وهنا تذوق العدل بجميع مظاهره فلم ترض بذاك الجانب هدفاً تتقصاه؟!

﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن، بل هم عن ذكر ربهم

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٣٦.

٢ ـ سورة التكوير، الآية ٢٦.

معرضون﴾[١].

لا تترك الحدائق الغناء إلى ضراوة الصحراء ورياض الورد إلى مراتع الشوك، وينبوع النور الساطع إلى مصدر الظلام الحالك. تنح عن درب الضلالة وأنت تسير نحو الهداية. فالبساتين والرياحين هنا ومصدر النور والهدى كذلك هنا فإلىٰ أي شطر تيمم وجهك؟!

﴿أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[٢].

توجه إليه فإنك منه، وإليه تعود، وهو معينك ونصيرك ومسندك:

﴿الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[٣].

لك حاجة إلى جناحين تحلق بهما في أجواء الملكوت الأعلى: أحدهما جناح الرضا والآخر جناح التوكل. فبامكانك أن تبلغ بهذين الجناحين حتى أعلى عليين.

وحظك لجد عظيم بامتلاك هذين الكنزين فإنهما يمنحانك هدوءاً يجعل الملوك يغبطونك على ملكك. فطوبى لمن يحدد تعامله بما يكون له مع ربه فيقبض منه وينفق في سبيله ويبذل العطاء لأجاله. فالدخل منه والانفاق له. عيشه هانيء وقلبه هادىء. تسلُل التشوش إلى نفسه

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ٤٢.

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٥٣.

٣ ـ سورة الشعراء، الآيات ٧٨ ـ ٨٤.

ممنوع ودرب الهم إلى فؤاده مغلوق بل جُعل الحزن عليه محظور.

إنك لو وقعت في فخ شجار تبحث أولا عن محام تشرح له تفاصيل شجارك، وبإرشاداته تقصد المحاكم. تُسلّم إليه مقاليد أمرك وتريح نفسك. ربما لم يؤد رسالته في الدفاع عنك فيظلمك، أو يسهو لجهل أو يخطأ بهفوة ويغبن بذلك حقك، أو أن يغويه عدوك.

والحياة عرصة لمئات العقد والمشاكل، وهو حلّالها، سلّم عقدها ومشاكلها إليه ونل بثقتك فيه هدوءك. فلا الجهل فيه يدب ولا الهفوات تخطئه ولا النوم والنعاس يغلبانه ولا الضعف يعتريه. سلّم أمورك إليه وردد:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1].

هؤلاء المحامون قد يسلبونك حقك ويمنحونه لغيرك وقد يسلبون غيرك حقه ويدفعونه إليك. اتخذ وكيلاً لا يختص بي وبك بل يكون وكيلاً للجميع ويمنح كل ذي حق حقه:

﴿خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾[2].

أخبرني كم من حق تريد تقصيه عن طريق هؤلاء المحامين المتبجحين؟ وكم من مرة رأيت منهم ما يخالف وعودهم؟ وكم من أجر تقبلت دفعه إليهم؟ أحياناً لا تحصل على موعد منهم وأحياناً تُرفض من قبلهم. أو أنهم يقاضونك دون أن يثبتوا لك حقاً. إلجأ إليه هو

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

واتخذه وكيلاً فإنه يدعوك إليه بنفسه لينتشلك من التيه والضياع فيهديك سبيل الرشاد والصلاح، فاستمع إليه ينصحك:

﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتخذه وكيلا﴾[١].

وردد بعد فراغك كل صباح من أداء فريضة الصلاة أن:

«حسبي الرب من المربوبين. حسبي الخالق من المخلوقين. حسبي الرازق من المرزوقين. حسبي الله رب العالمين. حسبي من هو حسبي. حسبي من لم يزل حسبي. حسبي من كان مذ كنت لم يزل حسبي. حسبي الله لا إله إلّا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»[٢].

لقن نفسك هذا الدعاء لكي لا تجعلن ثقتك في غيره ولا تتوكلن إلّا عليه.

انصت لحديث آخر عن نبيك الكريم محمد ﷺ:

**«... ومن انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها، ومن أراد أن يرزقه الله من حيث لا يحتسب، فليتوكل على الله»[٣].**

وعنه ﷺ أيضاً:

**«ولو أن العبد يتوكل على الله حق توكله لجعله كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».**

---

١ ـ سورة المزمل، الآية ٩.

٢ ـ مفاتيح الجنان، تعقيبة فريضة الفجر.

٣ ـ مجموعة ورام، ٢٢٢١.

## وإليك هذه الحكاية:

«بابا كوهي»، منطقة تتكوّن من ينبوع ماء ومجموعة أشجار، تقع على جبل في شمال مدينة «شيراز». كان هذا المكان دار عـبادة ثـم مثوى عارف كبير يدعىٰ «بابا كوهي» (ره).

قبل حوالى عشرين عاماً اتخذ هذا الزاهد المكان المـذكور، وهـو الآن يشتمل على كوخ بسيط، دار لعبادته بعد ان اعتزل الناس.

كان يسمىٰ «كوچك علي»، عمره ربما كان يناهز التسعين. لا يترك الجبل إلّا نادراً. كان الناس ممن يرتادون المكان للترويح يقدمون له المعونات أحياناً. سألته يوماً:

ـ ايها الشيخ! هل حصل لك ان تعاني جوعاً في هذه المنطقة الجبلية ولا يكون لديك ما تقتات عليه.

أجابني:

ـ لا، مولاي سخي.

ثم اردف يقول:

ـ هل تذكر قبل عدة أعوام انهالت الأمطار والثلوج على مدينة شيراز لسبعة أيام متتالية. كان عندي شيء قليل من الطعام انتهىٰ في اليوم الثاني من نزول الأمطار. وفي اليوم الثالث تحولت الأمطار ثلوجاً لم تترك مكاناً في الجبل والمدينة إلّا غطته بوشاح أبيض ولم يكن هنالك من سبيل للهبوط من الجبل.

قضيت يومين أتحمل الجوع. فقلت في نفسي: لا بأس! قد يكون موتي بسبب الجوع. أعددت نفسي لاستقبال الموت وليلاً لجأت إلى فراشي انتظر فيه ملك الموت. العجز صار يدب في أرجاء جسمي. كان الليل قد تجاوز منتصفه عندما سمعت صدى صيحة من وراء الباب. فتحت الباب وقد تملكني العجب. فوجدت رجلاً متوشحاً بالبياض يضع أمامي وعاء مملوءاً بالرز ولحم الدجاج مع الحلوى ثم جلس حيث كان هنيهة. سألته: من أين أتيت وكيف مضيت سبيلك في هذا الجبل في مثل هذا الوقت من الليل. قال:

في ذلك حكاية لابد أن تسمعها من أصدقائي. لو أتاك شخص يريد هذا الوعاء أخبره متى تسلمت هذا الطعام. استودعك الله.

ما أن تفوه بهذا الكلام حتى توارى عن مرامي بصري في هذه المنطقة المكتظة بالثلوج. فرأيت أن الحدث إنما هو فضل من الله ورحمة منه لا غير. تناولت عدة لقمات من الطعام بعد أن قاربت أنفاسي على الانقطاع. هكذا تدبرت أموري خلال عدة أيام بذاك الطعام.

انقضى الأسبوع ثم استعاد السفح صفاءه القديم. وذات يوم ورد

علي شابان ألقيا التحية وجلسا إلى جانبي. سألاني:

ـ يا كوچك علي هل عندك وعاء أئتُمنت عليه.

قلت:

ـ بلىٰ.

ثم اتيتهما بالوعاء ووضعته أمامهما.

سألاني:

ـ متى تسلمت هذا الوعاء؟

قلت:

ـ لا أعلم بالضبط ولكني واثق بأن الوقت قد تجاوز قدراً منتصف الليل.

ألقيا عليَّ بعض نظرة تنم عن اندهاشهما وكنت أنا الآخر أشاركهما الحيرة.

سألت:

ـ هل لي انا الآخر أن أطلع على حقيقة هذا الحدث؟

قال أحدهما: ايها الزاهد! تعلم انها كانت ليلة قارصة البرودة. وكانت الثلوج تنهمر متساقطة منذ الصباح. قضينا نحن الأصدقاء إلى جانب بعض منذ بداية الليل. كنا منتعشين وبالنا قد فرغ من كل هم ولما بسط صاحب الدار سفرة العشاء لم يكن أحد منا بذي رغبة في الطعام. عندها قال أحد الأصدقاء:

ـ أنا مستعد أن أقدم مائة تومان لمن يذهب الساعة إلى منطقة «بابا

كوهي».

قال أحد الأصحاب وكانت النشوة قد بلغت مبلغها عنده:

ـ أنا على استعداد لذلك.

أجابوا:

ـ ومن أين لنا أن نعرف؟

قال:

ـ سوف أقدم هذا الطعام لكوچك علي وأجعله شاهداً على ذهابي إلى هناك.

ثم حمل الطعام من السفرة وانطلق. وعندما شارف الليل على الانتهاء وكنا قد عدنا إلى رشدنا ذهبنا إلى داره مرتعبين. فعلمنا أنه لم يعد بعد. دبّ فينا القلق والرعشة على أن هذا الثمل المتثاقل قد أصيب بالانجماد بين تلك الثلوج في الليلة الفائتة. حتى عاد إلى داره قبيل الظهيرة وقد تناهى إلينا اليوم أنه قد قبض المائة تومان.

ايها العزيز، لم أسرد عليك أسطورة بل حكاية واقعية. فانّىٰ لك أن تدير ظهرك لرب ألقى في قلب سكير ثمل أن يجتاز طريقه بين الثلوج في الصحراء والجبل ليسعف بذلك جائعاً. فربنا لم يتخل عن عبده المتوكل حتى في قمة الجبل أفتشيح بوجهك عنه فتتوكل على نفسك أو الآخرين فترضى بنفسك أو بهم سنداً؟!

## التوكل لا يمنع المجاهدة:

لكي تتوثق ايها العزيز من أن التوكل لا يعني ترك الجهد أو الاستنكاف من طلب العيش، فكر مع نفسك إنك لو وضعت قمحاً في جوالق لمائة عام وجلست إلى جانبه متوكلاً على الله عسىٰ القمح أن يتحول سنابل تداس وتطعمك بعد ذلك خبزاً. لا يحدث ذلك أبداً.

التوكل يعني أن تسعىٰ وتجهد وتتضرع إلى الله، كذلك، أن يعينك ولا تعتمد على مجهودك لوحده.

وهكذا بالنسبة لأعمال آخرتك، أدِّ الفرائض والمستحبات ملتزماً بالتقوى دون أن تستند إلى عبادتك فقط بل تتوكل على فضل ربك.

أما سمعت حكاية إعرابي ورد على النبي ﷺ، فسأله ﷺ كيف وصل إلى هناك فأخبره: بالناقة. ولمّا سأله عن ناقته، رد بأنه تركها بالقرب من المكان متوكلاً على الله. فنهاه رسول الله ﷺ عن مثل ذلك مؤكداً بأن مثل هذا التوكل إنما هو خطأ اذ يتوجب عليه أن يربط ناقته ثم يتوكل بعد ذلك على الله.

إنه هو القائل في كتابه المجيد:

﴿وان ليس للإنسان إلّا ما سعى وأن سعيه سوف يرىٰ﴾[١].

هذا هو طريق ضمان سعادة الدنيا وسعادة الآخرة أيضاً. ولكنه مع ذلك يأمرك أن لا تغفل عن التوكل عليه فتكون متوكلاً على نفسك فقط حيث يقول:

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله﴾[٢].

فكّر فيما كان منك حتى الآن فكم من أمورك عقدت العزم لها وبذلت في كسبها جهدك دون أن يتحقق لك مطلوبك. إذاً، حذارِ من أن تتبجح بسعيك. بل اعتز بربك واعتبر جهدك شيئاً من أمره فيك، وتحقيق المطاليب كلها منه.

أمعن في الآيات التالية:

﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾[٣].

تأمل لتعرف أن العزم منك وتلبية الحاجة منه. هذا عن شؤون دنياك أما آخرتك تحدثك عنها الآية:

﴿ومن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً﴾[٤].

---

١ ـ سورة النجم، الآيتان ٣٩ و ٤٠.

٢ ـ سورة الكهف، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

٣ ـ سورة الاسراء، الآية ١٨.

٤ ـ سورة الاسراء، الآية ١٩.

ربنا لا يخيب أمل أي شخص في بابه ولا يعود محتاج من داره نادماً على سؤاله. ولكن يبقى أن نرى ما هي حاجة العبد في حضرته:

﴿كلاً نمُد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[1].

وحاصل كليهما هو أنك ستتلقى ثمرة كل جهد تبذله يوماً ما:

﴿يوم يتذكّر الإنسان ما سعى﴾[2].

يوم يتذكر الانسان أنه أفنى العمر كله متمنياً لدنياه. ما طلبه من الله كله كان دنيوياً وقد أنعم الله عليه بها ولكنه الآن غدا خاوي اليدين.

كأنه مسافر قضى سفرته ينزل من الفنادق بأفضلها وله من وسائل السفر أنسبها، لا يستقل من المراكب إلّا الأرقى ولا يُقدَم له من الطعام والترحاب إلّا الأفضل ولكنه الآن، وقد عاد إلى موطنه الدائمي، لا يجد أمامه المأوى ولا الزاد.

فيا ايها العزيز، احرص على أن لا تتركن الجهد، وأن لا تتوكلن في سعيك إلّا على الله، وأن يكون جهدك لدنياك على قدر حاجتك، فإنها دار سرعان ما يداهمها الفناء واجعل سعيك الأساسي لبلوغ كمال المعرفة والسلوك إلى الله، وأن لا تأمل في كلا السعيين إلّا من عند الله لا من نفسك.

هذه هي الدعامة السابعة من دعائم الهدوء وفراغ البال. إنك إن تحليت بهذه المملوكات السبع تماماً، سوف لن تعصف بك أية حادثة

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٢٠.

٢ ـ سورة النازعات، الآية ٣٥.

لأنك تصبح بها جبلاً شامخاً وسالكاً ماهراً لك أن تطأ حتى السماء السابعة.

إقرأ الأحاديث التالية بعين البصيرة وأوّلها آتيك به من الإمام الصادق عليه السلام:

«التوكل كأس مختوم بختام الله عز وجل فلا يشرب بها ولا ينفض ختامها إلّا المتوكلون كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، جعل الله التوكل مفتاح الايمان، والايمان قفل التوكل، وحقيقة التوكل الايثار، وأصل الايثار تقديم الشيء بحقه، ولا ينفعك المتوكل في توكله من إثبات أحد الايثارين، فإن اثر المعلول وهو الكون حجب به، وإن اثر المعلّل علة التوكل وهو الباري سبحانه وتعالىٰ بقي معه، وإن أردت أن تكون متوكلاً لا متعللاً، فكبّر على روحك خمسة تكبيرات وودّع أمانيك كلها توديع الموت للحياة، وليس أدنى حد التوكل إلّا تسابق مقدومك بالهمة، ولا تطالع مقسومك، ولا تستشرف معدومك فتنتقص بأحدهما عقد إيمانك وأنت لا تشعر».

وإليك الثاني من نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«من انقطع إلى الله كفاه كل مؤونة».

وأخيراً استمع الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول:

«خصلة من عمل بها كان من اقوى الناس. قيل: وما هي يا امير المؤمنين؟ قال: التوكل على الله عز وجل».

ويقول أحد العظام أنه بعد ثلاثين عاماً من كسب العلم توصل إلى معرفة ستة أمور ينجو الخلق بالتزامها، وهي:

الأول: قوله تعالى: ﴿وما من دابة إلّا على الله رزقها﴾ حيث اعتقته هذه العبارة من همّ الرزق.

والثاني: إن العداء يتفشىٰ بين الناس بفعل الحسد، فترك الحسد وراح يحسب الجميع أصدقاء.

والثالث: أنه علم أن عاقبة الأصدقاء هو الفراق فاختار مصاحبة الطاعة والعبادة ليرافقانه في القبر وفي يوم القيامة.

والرابع: أنه رأى الشيطان هو ألد أعدائه فاستعاذ بالله، فزاد بذلك نفسه بحصانة دائمية من الانقياد إليه.

الخامس: انه رأى كل بناء يشيد يُترك لاحقاً، فعمل على إعمار قبره ليشيد منزله السرمدي.

السادس: لكل في رأسه طلب يتقصاه وعلم أن ملك الموت يطلب روحه فانشغل باعداد الزاد.

# «التواضع»

وا أسفاه على الانسان كان أوله نطفة نتنة وآخره جيفة عفنة فكيف يحسب فيما بينهما حساباً لنفسه دون ربه؟

﴿أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[1].

فأول مظهرنا النَّتْنُ وآخره العَفْنُ فأنّى لنا الجرأة أن نرفع رؤوسنا ونتبجح بذواتنا؟

عسىٰ ان يفتح الله أمامنا أبواب المعرفة حتى نغفل عن أنفسنا تماماً ونرىٰ كما كان الإمام السجاد ﷺ يترنم متعبداً إلى الله في قوله:

«مولاي يا مولاي انت الغني وأنا الفقير وهل يرحم الفقير إلّا الغني. مولاي يا مولاي انت الحي وأنا الميت وهل يرحم الميت إلّا الحي».

هذا لا يتحدد بنا عندما نكون أمواتاً في المستقبل بل لا حياة لنا منذ الآن وقد قال الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ:

---

١ ـ سورة يس، الآية ٧٧.

«هو حياة كل شيء».

فكل ما كسبته اكتسبته من حياتك: فما دام هو حياتك فانظر ماذا تملك من عند نفسك؟ كل شيء منه هو. ثم أنك تتبجح في حضرته؟ فطوبىٰ للعابد فعبادته خير مصدر لرفعته وهنائه:

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[1].

فلما كانوا يعلمون أنهم من التراب، استحيوا أن يطأوا التراب فصار السجود أفضل أحوالهم وهم يُعفِّرون وجوههم به.

استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه؟!»

انظر إلى فخر العالمين وتاج رؤوسهم قضى برهة راعياً في سفوح الجبال وربوع الصحاري. وحيناً يفترش بساطاً متهرئاً في غار حراء يحوله غطاء يلتف به عند النوم، ينادي العبيد قائلاً: بني وفتاي، ويستبق العبيد والأطفال في إلقاء التحية والسلام. الأرض فراشه في أغلب الأحيان او قد يكون قطعة من حصير أحياناً. وسادته كيس جلدي محشو بألياف التمر. لم يحدث أن يشبع أبداً من خبز القمح لثلاثة أيام متتالية. كان يفطر بعد صومه بعدة تمرات وجرعة ماء ولا يستعيب طعاماً ولا يرغب فيه. يجالس أصحاب الصفة ومشردي مكة

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٦٣.

على صُفَّةِ مسجد المدينة حتى يضطر الوارد الى المسجد أن يسأل: أيكم محمد ﷺ؟ كان يقول أنه يحب الدائرة فإنها لا تنقسم إلى أعلى وأسفل ثم يدعوهم للجلوس في حلقات. يحلب الحليب من الخراف بيده ويرقع نعله بنفسه. لا يأبى التشاور مع الأدنيين منه. وقد ذكرت زوجته عائشة أنهم لكانوا يمضون شهراً دون أن يتصاعد دخان من مطبخهم. يمتطي مطية دون سرج. ويحدث كثيراً أن يُسهم الآخرين في مركبته ويطحن قمحه بنفسه:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«أفطر رسول الله ﷺ عشية خميس في مسجد قبا. فقال: هل من شراب؟، فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بُعسّ مخيض بعسل فلما وضعه على فيه نحاه، ثم قال: شرابان يُكتفي بأحدهما من صاحبه لا أشربه ولا أحرّمه ولكن اتواضع لله، فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله ومن بذّر حرمه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله..».

وهذا صاحب النفس المنعشة للنفوس أُختير اسوة لك فأخبرني إلى أي مدى تمثلت بهذه الاسوة؟

فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«أتى رسول الله ملك فقال:

إن الله عز وجل يخيّرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً.

قال: فنظر إليّ جبرئيل وأومأ بيده أن تواضَعْ؟ فقال: عبداً متواضعاً رسولاً. فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً. قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض».

المنشغلون بشؤونهم يستضئلون قدر أنفسهم قياساً إلى غيرهم. فما نطلع عليه من عيوبنا وهفواتنا لا نعلم بمثلها عند أي شخص آخر، فعلى من نرغب الترفع إذاً؟!

**﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾**(١).

فيا ايها العزيز! من عرف الله لا يمكن له في حضرته إلا ان يحني رأسه شعوراً بالذل والهوان. فإنه هو المتكبر، والعظمة لا تليق بغيره. فأنّى للإنسان أن يتكبر وهو العاجز حتى عن التحكم بنبض قلبه للحظة واحدة. فإن سكت لحظة لا أحد يقدر على تنشيطه ثانية لولا مشيئة الله وارادته.

ففي حضرة خالق التراب، كل من تواضع وكان بترابيته موقناً، ترفع وأصبح على الخلق سامياً، ومن لا يستنكف عن الاستجداء في مثل هذه الحال، وهبهم خالقهم وسلطانهم العز بين خلقه وأهل سلطانه.

فأنت كن خاضعاً في حضرة السلطان الطاهر ليهبك رفعة وعزاً أبدياً، فقد قال رسول الله محمد ﷺ:

«من تواضع لله رفعه الله»

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٨٣.

فمدعاة تنكر الإنسان للتواضع غرور يأتيه من تعظيم الذات. أحياناً لمنزلة وأخرى لقدرة، تارة لعلم وثانية لعقيدة، ومرة لجمال وأخرى لكمال، أحياناً لثروة وأخرى لمقام. وكلها تمرد في حضرة العزيز القادر الجبار. فهلا نتحدث عن قلة ما عندنا. والصحيح انه ليس في حدود القلة بل اللاشيء حيث يقول عز وجل:

﴿يا ايها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.[١]

أنا الفقير في حضرته، ليس للثروة فقط بل لكل شيء فالممكن في وجوده فقير من كل جانب وناحية. إذاً، حتى لو لم تكن متواضعاً، فإنك مهما تكن، على فرض تكون مغروراً، إحذر أن تنخدع بالدنيا الزائفة فقد أُمرنا بقوله:

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى﴾.[٢]

والله أننا لنعلم ما يترسب في أنفسنا من عيوب ما لا نعلم بمثلها عند أي شخص آخر، فكيف لنا أن نجرأ على تفحص عيوب الخلائق؟

فإن انشغلنا بمعايب أنفسنا يبلغ استحياؤنا في حضرة ربنا ذروته وهو مقدمة التواضع، والتواضع منطلق لمقام آخر يذكره الإمام الصادقعليه السلام في قوله:

«التواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء».

فذكر الحق إن أشاد ربوع القلب على ضوء المعرفة ولد معه

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ١٥.

٢ ـ سورة النجم، الآية ٣٢.

الخضوع والتواضع، ومادام العبد على هذه الحال يصون يده وساقه وعينه وفرجه ولسانه من ارتكاب المعصية والاتيان بالإثم. انظر إلى عظمة المجرات وما تكون الأرض في مثل شأنها! ثم أنت أمعن في عظمة الأرض بما فيها من خلائقها جميعاً، ومن أنت بالنسبة إليها. فكّر بمن سكنوها ورحلوا، ومن لم يسكنها وسوف يقدم إليها، فكّر في مكانتك من عالم الوجود. سوف تلتفت انك لا تبلغ حتى النقطة على هذا الخط الممتد إلى ما لا نهاية، ولما عرفت ذلك وتنبهت إلى لا شيئيتك تبدأ عندئذ حياتك الحقيقية.

يقول أحدالعظماء: «لو اجتمع الخلق جميعاً على أن يذلوني بإذلالي لنفسي ما قدروا».

والمثير أن من ينظر إلى نفسه هكذا يرفع الجميع شأنه. يخيل إليّ أنك تذكر فضيل بن عياض الذي شرحت لك حاله في الجزء الأول فإن كانت بك رغبة أن تسمع في هذا البحث آراء أهل الأحوال العرفانية أذكر لك رأي أحدهم حيث كان يقول بان المدعوين إلى الله هم أصحاب خشوع وتواضع والمدعوين إلى الطواغيت هم أهل الكبر والعُجب.

مادام الكلام قد جرنا إلى مثل هذا المكان دعني أبسط لك معنى التواضع عسى أن لا يحجمن الجهل احترامك لذاتك.

تحدثنا أن التواضع لله رفعة لا التواضع لأي متكبر طغى، فقد قال رسول الله ﷺ:

«التكبر مع المتكبر صدقة».

فأنت إن التزمت الخضوع والتواضع مع الطغاة، المتمردين على حضرة الحق تكون، في الحقيقة، قد زدتهم غروراً وتكبراً. إياك وأن تحقرن ذاتك أمام الفسقة أو الأثرياء، أصحاب المناصب والظلمة.

ولتحسن فهم معنى التواضع أمعن التفكير في هذا الكلام العظيم من الإمام الصادقؑ:

«والتواضع ما يكون لله وفي الله وما سواه مكر».

إلهي! إنني أرى في كل ذرة من عالم الوجود نورك، وأنظر فيها إلى جمالك، لأنك قلت: ﴿اينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله﴾، لا أقسمها إلى أعلى وأدنى فكلها في عيني مظاهر علمك وقدرتك. فإلى أي شيء انظر أراك معه، وإلى أي أتحدث لا يكون كلامي إلا عنك فالحشرات وحتى المجرات كلها تتغنى بأنشودة عظمتك.

هذا هو الكون، فلماذا لا أخشع إزاء خالقه؟ لو كان هذا هو ديدنك رافقنا فإننا نريد الفناء في حضرة صاحب الوجود.

ولكن لو حسبت نفسك غنياً وأنت تواجه الفقير، وتحدثت عن القدرة أمام الضعيف وأحنيت رأسك لكل صاحب جاه وعظمت شأن كل صاحب ثروة ثم سميت هذا تواضعاً، فاعلم ان هذا هو ما تكرر الكلام عنه في أحاديث الائمة ؑ.

ولأبسطن لك معنى «التواضع» أكثر. خذ مظاهره الأخرى من هذا الحديث الشريف عن الإمام صادق ؑ:

«من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس وأن تُسلِّم على

من تلقى وأن تترك المِراء وان كنت محقاً وأن لا تحب أن تحمد على التقوى».

* * *

وأوحى الله الى موسى ﷺ: أتدري لم ناجيتك وبعثتك إلى خلقي؟ قال: لا، يا رب. قال: لأني قلبت عبادي واختبرتهم فلم أر أذل لي قلباً منك. فأحببت أن أرفعك من بين خلقي، لأني عند المنكسرة قلوبهم».[1]

فاستحقار الذات على هذا النحو هو انطلاقة الفناء العرفاني ومقدمته. سوف أحدثك عنه في الجزء الأخير. فلنكتف بهذا القدر من الكلام، فالمنازل أمامنا كثيرة والفرصة لجد قصيرة.

فهذا نبي الله عيسى ابن مريم ﷺ يطلبن من الحواريين حاجة ولما أبدوا له الاستعداد، نهض وغسل أقدامهم رغم إعراضهم واستحيائهم وقولهم بانهم أولى بهذا العمل. لكنه ﷺ نوه لهم بأن أفضل الناس من يخدم العلماء ثم أشار إليهم بانه بعمله هذا عرض لهم تواضعه إزاءهم ليكونوا من بعده، متواضعين إزاء الناس.

أجل، هذا هو نهج الأبرار لو كنت راغباً أن تكون منهم.

والشيخ عبد الله الانصاري الهروي (ره) يقسم التواضع بأسلوب في غاية الجمال تنال بالنظر فيه منتهى الكمال حيث يصنفه إلى ثلاثة: للحق جل جلاله ولدينه ولأوليائه.

---

١ ـ الكافي.

فأما ما يكون للحق فإنه (برأيه) يعنى: ان يكون الشـخص لأمـره (لأمر الله) مطيعاً ولحكمه خاضعاً وبذكره قائماً.

وأما ما يكون للدين فانه يعنى أن لا يأتين على حكمه برأى ولا يتقصين فوق رسوله استاذاً ومعلماً ولا يتنكرن للحقيقة عداءً.

واما التواضع لأوليائه فان الشيخ الهروي يراه في أن لا ترفع قدرك فوق قدرهم وأن تكرمهم ولا تسيء الظن بهم.

## «الصبر والحلم»

ونحن نصل إلى هذا المقام، اعلم ان ثمرة المعرفة والرضا هو التحلى بالصبر. ولما كان الصبر اسم ثبات مُرّ سُمي الحلم «الصبر» لمرارتـه. ولكن توثق أن الصبر لو أرفق بالمعرفة لأصبح حلواً.

فأنت تزور طبيب الأسنان بـنفسك مـختاراً، وتـتحمل آلام القـلع مستبشراً، ثم انك تقدم له الشكر على ذلك لأنه ألم آني يمنحك من ألم طويل وضار خلاصاً، وتبذل له دخلك أجراً لأنك تعرف أن الطبيب لا يتخذ أية بادرة عبثاً.

والمدهش أن الله سبحانه وتعالى يَذْكر الصـبر غـالباً إلى جـانب الصلاة وإنّا نعرف أن الصلاة عمود الدين الأول. إنما يـقول بـذلك أن الصبر دعامته الثانية، فمثلما تسلك دربك بساقين تـدعمانك، يـلزمك للسلوك الى الله دعامتان، ألا «هما الصبر والصلاة».

هذا ما تخبرك به الآيتان:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾.[١]

﴿استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين﴾.[٢]

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٤٥.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٣.

## «الصبر على الألم»

يروى أن شاباً تلقى ضربة سيف في ساقه خلال إحدى المعارك إبان صدر الإسلام. فقرر طبيبه بتر ساقه على اضطرار فأعدّوه للجراحة. ولما أدرك أنه يعرض للتخدير لا محالة وكانت احتمالاته تذهب إلى أنه قد يقضي نحبه قرر أن يخضع للجراحة دون تخدير كي لا يغفل عن ذكر الله في لحظاته الأخيرة.

طريقة العلاج كانت تقتضي أن تقطع الساق بمنشار يسخن إلى درجة الاحمرار على النار. وهذه كانت أفضل طريقة ينتهجها الطب القديم فلا يراق فيها دم ولا يتأتى منها التهاب.

أنت يا من لا طاقة لك على وخز أبرة، إصغ إلى حكاية هذا الشاب. قطعت ساقه وهو لا ينطق إلا بعبارة: «الحمد لله» و«إنا لله وإنا إليه راجعون». فهو خير مصداق لمدلول الآية:

**﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾**.[1]

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١٢٦.

## الصبر في قبضة يد والصلاة في أخرى

ولكي أزيدك ثباتاً والزاماً، أسرد عليك حكاية أخرى:

روى أحد الأطباء: لما كنت أواصل التحصيل في الجامعة طرأت لبستاني مبنى الكلية حاجة فورية لعملية الفتق والجراحون يعلمون أن قلبه لا يتحمل التخدير، فقال: لا مانع لدي. إستعدوا لإجراء العملية عند موعد صلاة الظهر.

ولما كان من البديهي للجراحين أنه لا يصمد إزاء الألم، اصطحبوا مجموعة منا نحن الطلبة إلى غرفة العمليات لنحكم الإمساك به أثناء الجراحة ونمنع تحركه.

وعندما أطلق المؤذن صوته ينادي «الله أكبر»، أدخل الرجل إلى غرفة العمليات، كل شيء كان على ما يرام. قال البستاني «وانا أشرع بصلاتي إبدأوا باجراء الجراحة.

استلقى على سرير العمليات. بدأ بقراءة الإقامة ونحن نسمعه يردد التكبير ثم سورة الحمد. بدأ الجراحون الشق ونحن بالاستعداد. ولكننا

جميعاً أُذهلنا ونحن نراه لا يتحرك أبداً. مستلقياً، أدى بمنتهى الهدوء صلاته حتى نهايتها. ولما فرغ منها بعد السلام، سأل: هل انتهت؟ اجيب: بقي القليل. فبدأ أداء فريضة العصر. انتهت الجراحة وهو في الركعة الثالثة من صلاته التي كان يواصلها في ذروة الهدوء والتركيز ونحن نقف أمامه مبهورين حيث صرنا جميعاً نبارك له احرازه مثل هذه الإرادة والحلم.

وفي حرب الدفاع التي فرضت من قبل نظام الطاغية صدام على الجمهورية الإسلامية في إيران كنت تجد بعض الشباب الكرام من غير ذوي الخبرة الطويلة على درب السلوك يجتازون في ليلة واحدة درباً يلزم سلوكه مائة عام. ولك أن تؤلف الكتب عن أحوالهم. ومثل هذا الصبر إنما هو نصف الايمان.

ومما أوصى به رسول الله ﷺ الفضل بن عباس في حديث له:

«فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين، فافعل. وإن لم تستطع فان في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر. والفرج مع الكرب. وان مع العسر يُسرا».

قال الإمام الصادق عليه السلام: اعلم ان بلاياه محشوة بكراماته الأبدية ومحنه مورثة رضاه وقربه ولو بعد حين».[1]

وأنت ايها العزيز، أَوَ يخيل إليك أنك محقق غاية دون التقلد بوسام الصبر؟! فكلما كان المراد أرقى ازدادت حاجتك إلى الصبر، وكلما

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١، ص ٢٠٠.

كنت أكثر تعلقاً بالحبيب تذوقت من الصبر على بلاياه حلاوة أكبر.

فيا مَنْ أشواك دياره زهور ورياحين! ويا مَنْ عناء دربه هناء:

سكرك يثمر خمرا ومن عنائك يتأتى الهناء.

فيا ايها العبد الصابر! إن كنت لمنافع الصبر محتسباً، تلتفت إلى أن مآل كروبه سرورٌ.

ها هو باقر علوم آل بيت رسول الله ﷺ يؤكد في حديث له ان الصابر يبلغ بصبره مرتبة الصائم القائم على عبادة الله ثم يواصل مسيرته حتى يصل مرتبة شهيد قارع بسيفه مع محمدﷺ في سبيل الله.

فأنت لو أردت أن تقضي عمرك متذمراً تاركاً الحلم وراء ظهرانيك سوف تكون بذلك جاعلاً الحياة زنزانة تنهال عليك فيها مئات الآلام الدنيوية والأخروية. فاعلم ان هذه هي ثمرة الحلم، ليس له بل لي ولك. فإنه القوي القدير، ولسنا نملك في حضرته إلا العجز المرير. فإن أبيت أن تستسلم لإرادة الحق تعالى وتتحلى بالحلم إزاءها، فماذا عساك أن تفعل؟ ما جدوى أن تجزع في أوان الرزايا تئِنّ وتصرخ عند الآلام والبلايا، أو أن لا تستنكف في فقرك من العار وعند الغضب من طلب الثأر وعند اشتداد الشهوة من إلقاء نفسك في مستوجبات النار.. حدثني إذاً، أيهما تفضل الحلم او التذمر والاستياء؟

فلنعد إلى الإمام الباقر عليه السلام ونستمع الى حديث آخر عنه:

«من لم يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز».

حسبنا أن الله جاعل التقوى والصبر أساس الإيمان في نداءاته القرآنية إقرأ معي الآية:

﴿إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.[١]

وأنّى لك أن تعلم أية حلاوة تثمرها لك مرارة الصبر، فالحصرم لا تقوى على تناول خمس حبات منه لفرط حموضته ولكن انظر إلى نفس هذه الحموضة كيف تتحول عنباً حلواً وشراباً منعشاً بأنواع وأنواع.

سمعت حكاية يوسف الصديق عليه السلام وما تجرعه من ظلم إخوته، ولكن.. قلبه كان مع الله وهو في قعر البئر ومن ثم حتى عندما كان يرزح تحت وطأة العبودية، وذاق ما ذاقه من جور زليخا انتهت به قضاياها إلى السجن. وما يعلم إلا الله ما جرى عليه في كل مرحلة إلا أنه في ظل الصبر آل مصير أسير البئر أن يجلسه الأعيان بينهم في الصدر ووصل متجرع المحن إلى سدة الحكم والسلطان. ولما أنبأ إخوته بعزه، استمع إليه يحدد الدواعي:

﴿من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.[٢]

ثم أن الله سبحانه وتعالى يقول لحبيبه المتجرع لكثرة من المحن والصعاب:

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

٢ ـ سورة يوسف، الآية ٩٠.

﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.[١]

واعلمن انك لبقادر على العيش حتى لو كنت مكفوفاً، والحياة تنقضي حتى مع الصمم. وقد تتوفر حياة لائقة لمبتوري الأيدي والسيقان. ولكن هل لك أن ترى مقطوع الرأس على قيد الحياة؟! ماذا يعني هذا الكلام؟ تقص معناه من حديث الإمام الصادقعليه السلام حيث يقول:

«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان».[٢]

حذارِ أن تكون إزاء كل أذى متذمراً متأوهاً ومع كل ألم صارخاً وبالويل للسماوات والأرض هاتفاً ولسانك في كل لقاء بالعتاب منطلقاً ثم -بعد انجلاء الأزمة والمحنة - بالصبر عليها والتجلد إزاء آلامها (حتى انتهت بحمد الله) مدّعياً. لا وألف لا، فهذا ليس صبراً، فالإمام الباقر عليه السلام أجاب جابراً لما سأله: يرحمك الله ما الصبر الجميل؟، قائلاً: «ذلك صبر ليس فيه شكوى».

ذكرت لك الحصرم مثلاً، فهل تعلم كم يعاني الحصرم من ضراوة الشمس ثم يُعزل عن أمه ويعرض للنار حتى يغلى ماؤه لفترة متحملاً عناء النار فيتحول عسلاً نقياً. فأنّى لك أن تتقصى كنوز السماء ولمّا تتحمل العناء؟ إن الله ليقلب عبده المؤمن ويقلبه حتى يكافئه على

---

١ ـ سورة هود، الآية ١١٥.

٢ ـ الكافي.

ذلك برفعة مقامه.

يروي محمد بن عجلان: كنت عند ابي عبد الله (أي الإمام الصادق) عليه السلام، فشكا إليه رجل الحاجة. فقال:

– اصبر فان الله سيجعل لك فرجاً.

– قال ثم سكت ساعة ثم أقبل على الرجل، فقال:

– اخبرني عن سجن الكوفة، كيف هو؟

– فقال: اصلحك الله، ضيق منتن واهله بأسوأ حال.

– قال:

– فانما أنت في السجن فتريد أن تكون فيه في سعة؟ أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن».[١]

ومما قاله رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس:

«واعلم ان النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب. وأن مع العسر يسرا».

عساك أن لا تقول: أرهقتني. فبنفسك العزيزة أقسم أنني لا أطمح إلا إلى تحقيق سعادتك السرمدية. فالطريق لجد ضيق ووادي الجهل لجد عميق. فكيف لك أن تجتاز هذا الطريق؟

الآن وقد عرفت أن الصبر هو مفتاح الإيمان، وعليك أن تكون من المتقدمين في أمره. وعلى أمل ذلك أبسط أكثر في شرح هذا البحث لأعرفك على أنواع الصبر والحلم.

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٥، ص ٢١٩ و ٢٢٠.

# الصبر على المحن والمصائب

قال تعالى:

﴿لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.[1]

احسن التفكير في هذه الآيات.

فما فيها من خوف أما يكون خوفاً من تنفيذ أمر العدالة، خوفاً من سلطان جائر، خوفاً من سوء السمعة، خوفاً من قلة الأموال، خوفاً من الجهاد او عشرات المخاوف الأخرى.

والجوع في إطارها يشمل جوع الصائم في شهر رمضان وجوع الفقير وجوع الصابر على لقمة فيها شبهة حرام و...

ونقص الأموال في مبحثها يتأتى من دفع النفقات، والخمس،

---

١ ـ سورة البقرة، الآيات ١٥٥ - ١٥٧.

والزكاة والخسارة في المعاملات، والتعرض للسرقات، وللمظالم في التجارة، والغبن و...

وفي بحث نقص الأنفس تعني ما ينساق في مجرى المرض، تلف أحد أعضاء الجسم وجميع الصدمات الجسمانية والآلام و...

وفي نقص الثمرات موضوع الآفات والسموم الزراعية واضرار الحدائق والأعاصير وجفاف الأشجار و...

يبدو لي أنه لم يعد هنالك من مصيبة لم تذكر في هذا الإطار. والمثير للدهشة ان الله سبحانه وتعالى يؤكد على ضرورة تذوق مثل هذه المحن من قبل الجميع. الآن أخبرني كيف كان حالك طوال حياتك مع هذه المحن ومذاقها؟! أَوَ لو كنت ممن لم يتذوقها، هل أعددت نفسك لاستقبالها؟

إنك عزمت على اجتياز طريق الحب وتحدثت عن الود. وعلى كل شخص لاثبات ما يدعيه أداء الاختبار. وأنت تعرف أن الجميع ينتسبون إلى أهل الأنس والود إبان الهناء والسرور. ولكن أنت فكر هل يبقى للمحبة ذكر في ظروف تضافر الآلام وتكالب الهموم؟ فلو لم يحدث فيك تغيير وكنت لله شاكراً على نفس المنوال سواء في أفراحك وأتراحك، أنظر لآخر الآية وأحمد الله واشكره كراراً على هذه النعمة، فقد خصك الله بصلواته ورحمته ووصفك بانك من الفائزين بوصال دياره. ثم أنه دعاك أن تردد عبارة عند مواجهة الأذى والضرر، إلا وهي: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، ففيها تهدئة ملذة تقلص الهموم عند المحن، وتزيد من راحة النفوس. فلقن نفسك: إنني وما

أملك كلنا من الله ومآلي إليه أيضاً. فالتفكير بما في هذه العبارة من مفاهيم مكنونة يضع عنك في أحلك المصائب ثقل المصاب فتترك بها الألم وبواعثه وتتخلى عن الملك وكذلك المالك.

يروى أن رسول الله ﷺ حتى عند انقطاع حبل نعله كان يردد هذه العبارة، فسئل إن كان هذا أيضاً مصاباً، فأجابهم أن بلى وأنه يرددها ليزيد ثواب قراءته هذه الآية إلى سجل أعماله.

والله، لا يأتينك من الرحيم إلا الرحمة، فلو كانت الحجب والستر تنزاح هاهنا لكنت ترى أن لك في كل عناء ألف هناء. لا أقول لك ذلك من عندي بل مما جاء على لسان نبينا الكريم ﷺ حيث قال:

«من يرد الله به خيراً يصيب منه».

فمن المصائب ينال الإنسان النضوج وبها يفوز بالأجر والثواب.

فيا ايها العزيز، تعلم أن الطريق إلى الكعبة إنما يمر بالصحاري، ومراتع الأشواك تملأ طريقك حتى بلوغك روضة الوصال. فالنبي موسى عليه السلام لم ير الهناء مادام في قصر فرعون وإلى جوار النيل. ولكن كوخ النبي شعيب عليه السلام ورعي الاغنام على سفوح الجبال هدياه إلى سبيل القلب.

قال رسول الله ﷺ:

«حُفت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات».

كما يروى أن جبرئيل لما شاهد الجنة، قال: يا رب لا يتركها أحد إلا دخلها. فلما حفّها بالمكاره. قال أنظر إليها. فلما نظر إليها، قال: يا

رب أخشى أن لا يدخلها أحد. ولما خلق النار، قال: أنظر إليها. قال: يا رب! لا يدخلها أحد، فلما حفّها بالشهوات. قال: أنظر إليها. قال: يا رب! أن يدخلها كل أحد».

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً. وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة».(١)

لكثر ما نقدم إلى الله طلباتنا فيلبيها ولا تلبى كثرة منها أيضاً. فلو كانت طلباتنا كلها تلبى من قبل الله لربما لم يكن طائلها إلا التعاسة والشقاء. أوَ لست الإنسان الذي وصفه الله تعالى في الآية:

﴿إن الإنسان ليطغى. إن رآه استغنى﴾.(٢)

فالفولاذ المنصهر يعرض عشرات المرات للحرارة في الأفران وفي درجة حرارية عالية جداً قبل أن يدق ويتقولب بالقالب المطلوب. فأنت متجنب الأشواك متى قطفت الأزهار ويا من لم تختبر السكر متى تذوقت طعم الخمر؟ إنهض واستقبل المعاناة مرحباً لترى أن العناء يفتح باب الهناء فتصبح موقناً.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتضرع إلى الله تعالى أن يرزقه يقيناً يحط من شأن مصائب الدنيا في عينيه.

وعنه (ص) أيضاً حاكياً عن الله تعالى:

---

١ ـ الكافي، باب الصبر.

٢ ـ سورة العلق، الآيتان ٦ و ٧.

«إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه أن انصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«البلاء زين للمؤمن وكرامة لمن عقل لأن في مباشرته، والصبر عليه، والثبات عنده، تصحيح نسبة الإيمان».

فيا ايها العزيز، أنت سالك درب حب اعتبر العرفاء غبار طريقه إكسيراً:

نيازمند بلا گو رخ از غبار مشو

كه كيمياى مراد است خاك كوى يار[1]

والحقيقة ان هذه الديار محفوفة بالأذى وهذا المراد لا يستقبل إلا مريداً يعشق الأذى.

---

١ ـ معناه:

– «ايها المحتاج المبتلى لا تغسل الغبار عن وجهك، فغبار ديار الحبيب إكسير من المراد».

## الصبر على الطاعة

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر﴾[1].

ما قيل حول كون الصبر أساس الإيمان إنما هو بسبب قيام العبودية على أساس ترك المعصية وأداء الطاعة. وهاتان الدعامتان لا تتوفران إلا في ظل الصبر.

كن كالجبل شامخاً راسخاً إزاء أذى العدو في ميدان القتال.

أنت تقضي بعض أيام الصيف الضاري متلهفاً لجرعة ماء ولكن لا ترتشف منها جرعة واحدة لأنك صائم.

وأنت قد تتوضأ في صباح فصل الشتاء بالماء البارد.

وربما تخليت عن فراشك في ليالي الصيف القصيرة لأداء صلاة الليل.

وتأبى عن كسب الحرام ولو اضنتك الحاجة.

---

١ ـ سورة مريم، الآية ٦٥.

وتشيح بوجهك عما تلتذ العين برؤيته.

كل هذه لا تتحقق إلا بفضل الصبر. وأنت الجزوع أنّى لك ان تبلغ هذه العظمة؟

ولكي لا تستقر في جبهة مخالفة إزاء ربك بل تدير ظهرك لما يمليه عليك المحيطون بك ولا تغتر بوساوسهم، إقرأ معي:

﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً او كفوراً﴾.[١]

والصبر على الطاعة لأسمى من الصبر على المصائب. فالمصائب لا تتنزل بأمر منك بل تفرض عليك، فجزعك إزاءها لا ينقص منها وإنما يزيدك تشوشاً وتقلقلاً. أما الطاعة فإنها من اختيارك وهي طريق تطلبه بنفسك.

والأفضل من كليهما هو الصبر على المعصية والإثم.

إقرأ الحديث النبوي الشريف التالي بإمعان:

«الصبر ثلاثة:

صبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر على المعصية.

فمن صبر على المعصية حتى يرُّدها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء إلى الأرض.

ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش.

ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة

---

١ ـ سورة الدهر، الآية ٢٤.

إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش».

اخترت هدفاً سامياً. فشخص يطمح إلى حيازة المال وآخر إلى تملك دار وغيره يكون طالباً للسوق ازدهاراً. وأنت تطلب الله. أخبرني كم من جهد بذله الآخرون لتحقيق هذه الغايات؟ وما مبلغ سعيك أنت في الطاعات؟ فشأنه الربوبية وشأنك العبودية. فلتعلمن أنك بحاجة إلى مجهود كبير تبذله في هذا السياق.

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.[١]

وهذا الصبر هو الذي يوصلك إلى معراج الوصال، ويقربك خطوة فخطوة نحو لقاء الحق. ألم تسمع قوله تعالى:

﴿واسجد واقترب﴾.[٢]

---

١ ـ سورة الانشقاق، الاية ٦.

٢ ـ سورة العلق، الآية ١٩.

## الصبر على المعصية

هو ذو الحظ الأوفر من الأجر والثواب. لأنك في معاناتك عند نزول كل من المصائب تجابه عدواً واحداً، وفي صبرك على الطاعة تخاصم نفسك. أما في الصبر على المعاصي فإنك تواصل المجابهة على صعيدين، الأول: جذابية المعصية خارجياً والثاني: ميول النفس باطنياً. والجمال يعرض على السالك في مشاهد ومشاهد وله في النفس جواذب وفواعل تستهويك بألف قوة وحبائل. الشهوة تفور وتغلي في البواطن. هذا يفور ويفور وذاك يثير ويثير. مسكين هو القلب، لا أعلم كيف له أن يتنصل من كل هذه الجواذب. في مثل هذا الموقف قطعت صاحبات زليخا أيديهن وهن عن الألم غافلات. فلتعلمن أن النفس لعلى مهارة مدهشة للعب الأدوار. فقد تشغلك بتمثيلها طوال الحياة حتى تسلبك فرصة تقصي المحبوب الحقيقي.

قال الإمام علي عليه السلام:

«الصبر، صبران: صبر عند المصيبة، حسن جميل وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرم الله عز وجل عليك.

والذكر ذكران: ذكر الله عز وجل عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكر الله عند ما حُرِّم عليك فيكون حاجزاً».

كنت قد قلت لربك أنك مغرم به. ولكنك غير مصون من أي جاذبية مادمت لمئات المتاع عاشقاً ومن قبل كل مخادع مخدوعاً وإزاء كل جاذبية متهافتاً مطاوعاً، فكيف لك أن تتبنى في وصال ربك صبراً وعن فراق نعيمه وجنته السرمدية متجلداً؟!

فإنك لا تمنع نفسك عن خطوة على درب المعصية إلا وتخطو مثلها قدماً في ساحة الحبيب!

ولا تصد يدك عن إثم إلا وقد وضعتها في يد الله!

ولا تصم أذنيك عن استماع لغو من حديث ووسوسة شيطان إلا وجعلتها محطة لالهام الرحمن!

ولا تلجم عن ذكر معصية لسانك إلا وقد جعلت حنجرتك تلهج بذكر ربك.

ولا تعيق البصر عن النظر إلى حرام إلا أيقنت أن ﴿اينما تولوا فَثَمَّ وجه الله﴾.

فلما كان الأجر هكذا. فما بال السالك على هذه الحال؟! فيوسف الصديق عليه السلام كوفيء، بصبره على تلك المعصية، بالتخلص من ذل السجن والجلوس على عرش سلطانه. فقد كان على درجة من المعرفة

جعلته يقول:

﴿.. رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾.[(١)]

١ ـ سورة يوسف، الآية ٣٣.

# الصبر على أذى الناس

وإن كان الصبر ينقسم إلى أنواعه الثلاثة ولكنني أريد التحدث أكثر حول الصبر، فقد اخبرتك أنه أساس الإيمان، فـإن شـعرت بـالإعياء اغلق الكتاب وعد إليه في الوقت المناسب متى ما تمتعت ببال فارغ هانيء.

ايها العزيز! الطريق طويل والمنال بعيد. لا نتجاوزه حتى النهاية إلا بإطالة الحديث.

إنك لو اخترت درب السلوك إلى الله لتجدن معارفك ينؤون عنك الواحد تلو الآخر. وسوف تزداد عزلتك كلما تقدمت في المراتب العليا من معراجك، فالناس محبون لرغباتهم وميولهم. فإن كنت معها متوائم تجدهم أنصاراً معينين وإن عارضت أهواءهم وميولهم فإنهم غرابـين وثعابين! أما أن ترتضي لنفسك بالنفاق ـفتتمايل مع أنسام الجميع ـ أو بالتوحيد (فلا تنصاع إلا لأمر الحبيب ولا تفكر إلا به). ويزداد عندئذ، بالطبع، أعداؤك.

ايها العزيز! لم يبعث رسول ولا صديق إلا لاقى المعارضة من ثلة من الخلق.. لم يأت رسول إلا وصفوه مجنوناً. فماذا تتوقع أنـا وأنت من مثل هؤلاء الناس؟ فكم من شوكة تراها تجاور الأزهار في هـذه الرياض! وكم من الطحالب تلتف حول سيقان الليلج والنسرين؟ إنهم لا يعرفون من سجل المعرفة حتى الفبائها، فينسجون فـي شأن العـرفاء مئات الأوهام والخيالات وينسبونها إلى العرفاء. فيا تعيس الحظ! لم تحرز في معرفة الله إلا ما تشوه من المعارف. تمهل حتى تطلع عليك شمس المعرفة الحقيقية الرفيعة صباحاً فتراهـا مـتلألئة فـي السـماء العلى، فلا تشغل نفسك بعويل الكلاب قبلها.

ألم تسمع قوله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قـبل طـلوع الشـمس وقـبل غروبها﴾.[١]

أي أنه يدعوه أن يتثبت على نهجه، ففيه تتلخص الحقيقة بأسرها، أما اوهامهم فانها مجاز ليس إلا. ثم أنه في مواقع أخرى يأمره أن يمر عليهم هوناً ويهجرهم بلطف ومروءة.

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾.[٢]

واعلمن أن المنحني الملتوي لا ينطبق أبداً على الخط المستقيم ولا المؤمن لبقادر على مسايرة المنافق والكافر. من هنا فليس بمقدورك

---

١ ـ سورة طه، الآية ١٣٠.

٢ ـ سورة المزمل، الآية ١٠.

مصادقتهم ومصاحبتهم. إذاً، لا مفر لك إلا أن تمر عليهم بخفة تمنع تلوثك بما يؤججونه من غبار، بل ردّ على إساءاتهم بإحسانك إن أمكن. فبمثل هذا الموقف ربما تلين قلوبهم لو كانت ما تزال على شيء من السلامة.

يقول تعالى:

﴿إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.[1]

حسبك فخراً أنك تعتزم الترفع إلى وصال الحبيب وكفاهم ضنكاً أنهم عن مثل هذه الرفعة محجوبون. وهل تريد لهم أعظم من هذا المصاب ولنفسك أرقى من هذه الرفعة؟

لا احبذ إلقاء الصخر إلى رامي الحجر.

وهكذا أيضاً القول: إلق الورود على الورود والأشواك على الأشواك. بل نستنصح بحديث رسول الله ﷺ حيث يقول:

«ألا ادلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك».[2]

وردد:

إلهي:

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٣٤.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٨، ص ٣٩٩.

صــبر بـر جـور رقـيب چـه كـنم گـر نكـنم
همه دانند كه در صحبت گل خارى هست[١]

١ ـ البيت للشاعر الإيراني سعدي الشيرازي ومعناه:
- «لولا أواجه جور المنافس بالصبر فما عساني أن أفـعل، فـالجميع يـعلمون أن الأزهار تجاورها الأشواك».

# الصبر على الفقر

ومن أنواع الصبر الأخرى: الصبر على الفقر وقد وصف الله سبحانه وتعالى أحوال الصابرين على الفقر في الآية:

﴿يحسبُهُم الجاهل أغنياء من التعفف﴾.[1]

انهم صابرون متجلدون إزاء الشح، يقبعون ارباباً على عرش العز، يأتون على خبز شعيرهم باشتهاء، ويحسبون عسل الورد إن رُفق بالمنة بلاء.

نفوسهم تنصاع لأمر الحبيب وظهورهم تدار لمن سواه. انهم هامات الدهر الشامخة، تجدهم هكذا في ضراوة حر الصيف وفي برودة الشتاء القارص. كل حين هم مفعمون بالحيوية، مستبشرون، لا يحنون هاماتهم التي رفعها الاله أمام كل من هب ودب لأنهم يعلمون علم اليقين ان نصيبهم من ذلك لا يكون إلّا الخزي والخذلان.

أكثر الثروات تدخر غصباً وجوراً وأكثر المناصب تتأتى ظلماً

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

وزوراً. فإن كنت لا تريد لنفسك التلوث بمثل هذه الأغبرة لا تـطلب من دنياك لا المقام ولا الغنى، فالجميع واثقون على الأقل بأن سكنة الأكواخ من المدقعين سوف يجتمعون قريباً عاجلاً مع سكنة القصور من السلاطين في منزل مـتكافىء يـمسحون أيـديهم الخـاوية عـلى التراب، وهو يوم ليس ببعيد.

يقول خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

«سيأتي على الناس زمان لا يُنال الملك فيه إلا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلا بالغصب والبُخل ولا المـحبة إلا بـاستخراج الديـن واتـباع الهوى. فمن أدرك ذلك الزمان وصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز، أتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدَّق بي».

والله إنك لو اقنعت بسلطان الملك ونلت الأنس منه لا يفارق بالك قول الشاعر حافظ: «ان لو طلبت في هذا السوق نفعاً لاقتنعت بالزاهد رفيقاً»، فيا إلهي! أنعم علي بالزهد والقناعة:

در اين بازار اگر سودى است با درويش خرسند است

الهـــى مـــنعم گـــردان بـــه دويش وخـــرسندى

إياك ان تنخدع ببهارج هذه الدنيا الخادعة وان تتراءى هذه العجوز الشمطاء لعينيك محبوبة فاتنة. فمتى ما نضج هذا الهوس في قلبك ردد مع نفسك الآية:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض

مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن اهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نــهاراً فـجعلناها حـصيداً كأن لم تـغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.[١]

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٢٤.

## الصبر على لقاء الله

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾[1].

فمن لا يتناهى إليه عبير من وصال الحق، ينام هانئاً كالأنعام على بساط الأرض، ولكني أعلم أنك تشم أحياناً رائحة تلك الروضة الفواحة، ويداعب عينيك في خلوات لياليك وميض من ديار حبيبك، وتتلظى روحك بلوعة اللهفة للوصول الى تلك الحالات.

إنك لتعجزنَّ من هنا فصاعداً ان تركن الى جانب اللا ابالاة عند القرب او البعد على حد سواء. فيا أيها العزيز، اصطبر ودق هذا الباب فشاعرنا مولوي يقول:

سايه حق برسر بنده بود   عاقبت جوينده يابنده بود[2]

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ٢٢.

٢ ـ معناه:

-«مادام ظل الحق يمتد فوق رأس العبد، كل من جد وجد».

ولك من بارئك تعالى هذه البشرى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.[١]

فيا أيها العزيز، كم من سالك إلى الله قضى العمر بهذا الباب وفُتح له الباب في لحظات عمره الأخيرة، ومنهم من رزق الفرج بعد الموت. ما هو مسلَّم به إنك لن تبقى خاوي اليدين ما دمت مجاهداً في هذا السبيل:

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.[٢]

من جهة أخرى لو فتح باب المعرفة أمامك سوف تعلم أن الفرج كلما تأخر في ظهوره لتحقق للسالك نضوج اكبر. والفرج إن جاء مبكراً فإن السالك على طريق سلوكه سوف يطلب اللقاء لا رضا الحبيب فيتدنى الأمل في كماله. وكلما طال أمد سلوكه قبل الفرج تتجلى عنده مظاهر أكثر للسلوك. فالمعلم الذي يكافىء تلاميذه بالحلوى يومياً لا تكون حصصه طلباً للمعرفة، والأمل يكون أكبر في نجاح تلميذ يتحمل مرارة الدرس والمطالعة دون تحلية مذاق. إذاً، إرضَ برضا الحبيب واطلب ما يطلبه واترك روحك تتلظى بلوعة الطلب هذه ففي لظاها اكسير الروح.

دياجير الليل سوف تنجلي قريباً، فيبزغ نور الفجر. وجفاء الخريف آيل للإنتهاء وأنسام الربيع على الأبواب. وينقضي عهد آلام الاغتراب

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ١٢٠.

بفوزك بكنز الاقتراب. فالشاعر حافظ الشـيرازي يـرفقنا فـي ديـوان كامل مع غزلياته في عناء الفراق، ولكنه يصل أخيراً إلى حيث يقول:

صبح امید که بُـد مـعتکف بـرده غـیب
گو برون آی که کار شب تا آخر شد[١]

١ ـ معناه:

-«صباح الأمل الذي كان معتكفاً وراء ستار الغيب، اخبره ان أبزغ فالليل الحالك قد انتهى أمره.

## «التوفيق للصبر أمر إلهي»

لتحليك بهذا الصبر اطلب التوفيق من الله فلولا توفيقه لا تقوى على التقدم خطوة إلى الأمام في هذا السبيل:

﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾.[1]

وإن كان التوفيق الإلهي يلزمك في أي من أعمالك إلا ان مظاهر توفيق الحق تتجلى اكثر فأكثر كلما كانت الأعمال أصعب وأشق.

فليس هنالك حقيقة أكثر جلاءً من عجز الإنسان حتى تجد أمثال النبي اسماعيل ﷺ استسلم للذبح راضياً واضعاً رأسه على الأرض وكان لأمر الله مجرياً، فقال لأبيه:

﴿قال يا أبتي افعل ما تؤمر ستجدني انشاء الله من الصابرين﴾.[2]

انظر إليه: لم يتكىء على نفسه بل قال: (انشاء الله). فأنت عند نزول المصائب ولترك المعاصي وفي أوان القرب والطاعة اطلب من الله

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١٢٧.

٢ ـ سورة الصافات، الآية ١٠٢.

التوفيق لها جميعاً، فبدون قوته لا تقوى على حمل هذه الأعباء الثقيلة.

أيها العزيز، من ظفر بمقام إنما منح المقام من فضل الصبر. فلم يظفر نبي أو صديق بالفرج لولا فضل الصبر.

## أحاديث نبوية شريفة في فضل الصبر

- «الصبر عند الصدمة أولى».
- «ما رُزق العبد رزقاً أوسع عليه من الصبر».
- «ومن يصبر على الرزية يعوضه الله».

ولكن أيها العزيز، إن تحليت بالجدارة لما قيل فإنك لضامن سعادة دنياك، وكذلك عزة آخرتك. وما يجب ان يحدث لبحادث، وما كتب عليك لآتيك. فما طائل جزعك وفزعك وقلقلتك إلا إيذاء النفس. ولكن لو تحليت كما نصحتك بالصبر والحلم فانظر أية سعادة سوف تكتب لك.

# ثمار الصبر

صبرت على إثمٍ فصنت نفسك من التلوث به،

لم تجزع لمصابٍ فنسيت فقيدك الراحل،

تكيف للصعاب في سبيل العبادة دون ان تتأوّه وتعتب،

إنك مهما تبذل وتعطي تتلقى الأفضل منه، سواء في هذه الدنيا أو في تلك. ولكن ما ألذ أُخرويها فإنه نعيم سرمدي.

يقول تعالى:

﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.[1]

وقال أيضاً:

﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾.[2]

---

١ ـ سورة النحل، الآية ٩٦.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٥٤.

استمع إليَّ احدثك عن ثمرة أخرى:

ألست تطمح الى الفوز والفلاح وتتضرع إلى الله دوماً أن يـرزقك بهما، فاصغ إلى الآية التالية لتعرف أن الصبر مفتاح الفلاح والفوز: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾.[1]

فيا أيها الفائزون ويا أيها المفلحون، طوبى لكم وما أعظم سعادتكم. إنكم لتعلمون اليوم أية أزهار ورياض أنمت شجرة الصبر في حياتكم!

تمهل حتى تتنبه لثمرة أخرى من ثمار الصبر:

هل ترغب في اعتلاء العروش والسكن في القصور، وان لا تلقى إلا سلاماً وتحية في ملك آمن؟ هذا هو ما تجنيه في مستقبلك من فضل صبرك.

يقول تعالى:

﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحيةً وسلاما﴾.[2]

فإن كنت ما تزال تستصغر ثمار الصبر، أزيدك من مـعرفة مـنافعه ليستقر قلبك ويهدأ وهو يركن الى الصبر.

إن عزمت على الأمر بالمعروف أو أن تنهى عن المنكر فإنك لعلى أتجاه معاكس ونية مغايرة لمخاطبك. أنت في هذه الجهة وهو في تلك، ولو أردت لعملك ثماراً ولشتلةٍ زرعتها ازدهاراً فإنك مكلفٌ ان تدفع اساءات مخاطبك بالاحسان ولذعاته بخير العبارات. أسكت سـبابه

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ١١١.

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٥.

بلطفك، ورد على عنفه بحلمك. لترى على حين غرة أنك أبدعت، فقد تحول النحاس ذهباً والبذاءة نزاهةً والعدو صديقاً. فما أعذب فعالك وما أثمرها، مع شدة عسرها! أما تعلم مَن الفائز بهذه النتيجة؟ إنهم الصابرون المتجلدون. إنني لا أقول ذلك من عندي ولكنه تفسير الآيات:

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.[1]

اكتفي بقول عبارة أخرى، إعلم ان يوم القيامة سُميَ يوم الحساب لأن كل أجر فيه يتقاضى بحساب، والحاكم فيه حسيب. إلا الصبر فأجره يبذل دون حساب، فما أهنأ الصابرين!

﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[2]

---

١ ـ سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و٣٥.

٢ ـ الزمر، الآية ١٠.

## «التفكير والتأمل»

لم تعد ذلك الشخص الذي يرضى لنفسه أن يقضي دنياه فقيراً إلى ذخر ورصيد أخراه. ورصيدك لبلوغ المعرفة هو التفكير، فلا تتأتى المعرفة دون تفكير.

ودنيا العلم كذلك لم يشهد أي اكتشاف أو اختراع دون تفكير. يقال أن العالم أديسون أوصل المصباح أربعة آلاف مرة بالتيار الكهربائي ويزداد في كل مرة دهشة وتفكيراً بمجريات الحادث عندما يواجه احتراق المصباح حتى اهتدى أخيراً إلى السبب. وأزاح، باختراع الكهرباء والإنارة الظلام عن ليالي العالمين.

ولكن هنالك ظلام آخر نواجهه، ظلام لا يضيئه إلا نور المعرفة. فأما ليالي هذه الدنيا، لو لم تملك فيها حتى الشمعة فان الشمس لَمُشرقة في الصباح فينجلي بها الظلام. فبأي شمعة تنير الظلام السرمدي (ظلام الآخرة) إن كان نصيبك؟ هداك القرآن مراراً لمثل هذا. أخبرني حقاً كم ساعة من عمرك قضيتها مفكراً؟ لا أقصد التفكير

الذي شغلك على مدى حياتك، التفكير بخزن ما يلزم من طعام لشتائك وعصير الليمون لصيفك، التفكير بزخرفة الدار واعمار الديار، التفكير بهموم الزوجة والعيال، باستزادة الرزق والمال وبحسرات قلة الدخل وآلاف الأفكار الأخرى حتى انقضى فيها عمرك. لا، وألف لا، إنها جميعاً لا تمثل تفكيراً بل شر وبال للفكر.

لا حد ولا حاصل لهذه الأفكار في الفوز بقرب الوصال. أولاً، إنصت إليّ أخبرك ما في الأفكار التي أدعوك إليها من أجر وثواب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته».

أما الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فأنه يؤكد:

«ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكير في أمر الله عز وجل».

فأي تفكير هو المطلوب؟

ولكي لا تضع كل تفكير في حساب العبادة، إصغ إلى رد الإمام الصادق عليه السلام على من سأله عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة حيث قال:

«يمر بالخربة أو بالدار، فيقول: أين ساكنوك؟ أين بانوك؟ ما بالك لا تتكلمين؟».

ويقول الله تعالى:

﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾.[١]

الأحاديث والآية السابقة أوضحت لك جانباً من جوانب التفكير وهو التفكير بزوال الدنيا وفنائها لتحاشي التعلق بها، وفهم كل علائق الألفة معها للجلوس من ثم على بساط الاستئناس بالحبيب الأزلي.

* * *

ومن جوانب التفكير الأخرى، التفكير فيما يحتويه عالم الوجود من الآيات التكوينية التي أظهرها لك الله في كل ركن وجانب. وقد وصف الله عز وجل مفكريه في الآية التالية:

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾.[٢]

تأمل الآية، تذكر أولاً انشغال الإنسان بذكر الله حتى لا يكف عن الذكر في جميع الأحوال ثم يستدرجه هذا الذكر للتأمل في خلق عالم وجوده. وخلال هذا التفكير يدرك أن خلق هذه المنظومة العظيمة لم يكن لعباً أو لهواً أو باطلاً. فمع اطلاعه على أي نوع من أنواع الفقر في عالم الوجود، يدرك أن ذات واجب الوجود منزه من كل فقر وحاجة وعيب، ثم تتجسد مظاهر جلال هذه الذات في نظره فيعم الخوف والخشوع كيانه بأسره. وكل هذه المراحل مراتب على سلم العروج.

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٩١.

فإلى متى يتوجب تفكيرك؟

﴿أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق واجل مسمى، وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾.[١]

تبين الآية أن التفكير في خلق السماوات والأرض إنما يراد منه استبانة هدفية الخلق ثم أنك تتنبه إلى أن لوجود هذه المنظومة نهاية، أي أنك بالتفكير فيها تهتدي إلى حقيقة التوحيد وإلى حقانية يوم القيامة. فالآية تؤكد هذه الحقيقة وهي أن من لا يتفكر لا يتوصل إلى مثل هذا الفهم. فكتاب الله يحتوي على آيات وسور، وكتاب التكوين أيضاً يحتوي على آيات وسور. إنك تعلم مافي كتاب الله من آيات وسور وأما سور عالم التكوين فإنها سورة الأرض وسورة الشمس وسورة القمر وسور أخرى من بقية الكواكب التي لا نعلم عنها إلا القليل.

وآيات سورة الأرض هي الجمادات والنباتات والحيوانات. ولكن إعلم أن ألفاظ كل من هذه الآيات لمن الكثرة حتى لا يقوى أحد على عدّها وحسابها:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾.[٢]

حروف آيات كتاب الله لا تتعدى (٢٩) حرفاً ولكن حروف ألفاظ

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٨.

٢ ـ سورة الكهف، الآية ١٠٩.

كتاب الخلق هي مائة ونيف سميت عناصر جدول «مندليف». والقرآن أساساً هدفه معرفة العالم. إذاً، تأملك في آيات القرآن وتفكيرك فيها يستجرك للتفكير بعالم التكوين والذي يهديك بدوره إلى ربك. وهذا هو ما تهدف إليه أنت. الآن أخبرني: وهل تتقصى أفضل من هذا عملاً؟!

وكل من كلمات عالم التكوين برعم غير متفتح، انفخ فيها بتفكيرك لتتصفح من بتلات كل برعم آلافاً من دفاتر الحكمة، ويداعب روحك عبيرها المنعش، وذاك العطر هو نفخة قيّمة من نفحات المعرفة.

إذاً، ايها العزيز، اجهد في تقصي هذه الشمس الساطعة، إجلس في دربها وانتظر طلوعها. ولكنها لا تطلع إلا على قلوب المفكرين، ولا ينعم بضيائها إلا المتفكرون.

من هنا فإن التفكير في عالم التكوين يهديك إلى الخالق إلى جانب كونه، بحد ذاته، حسنة كبرى.

* * *

ومن أنواع التفكير الأخرى، التفكير في القرآن لا سيما في الآيات ذات الصلة بالمعارف:

يقول الله تعالى:

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.[١]

وكيف لك أن تتحدث عن الحب والحبيب وأنت تحتجز مظهره على

---

١ ـ سورة محمد، الآية ٢٤.

رف في دارك، وقلبك لا يتهافت للنظر في هذا المظهر؟ ولتعلم حقيقة هذه المرآة التي تجلى لك الله سبحانه وتعالى من خلالها، إقرأ قول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله قد تجلى لعباده في كلامه ولكنهم لا يعلمون»

* * *

والنوع الآخر هو التفكير في فاقة الدار الآخرة والتزود بذخر لائق لذلك العالم وذكر الموت والرحيل والتخلي عما استأنست به وتركه جميعاً.

إصغ إلى سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله يقول:

«كفى بالموت واعظاً وبالعقل دليلاً وبالتقوى زاداً وبالعبادة شغلاً، وبالله مؤنساً وبالقرآن بياناً».[1]

تأمل قليلاً في الحديث السابق واعلم:

«ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب».

إنه التفكير بان العمر لآيل للانتهاء، والموت آت، واستجواب منكر ونكير يطرق أسماع بني الإنسان دون استثناء.

فكم من مرة سمعت نداء الموت؟ وكم من دفعة شهدت موت المعارف؟

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٥٣.

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾.[١]

ولمثل هذا التفكير دُعينا لزيارة القبور لنجلس إلى مثوى أمواتنا ونتحدث عندها ليس إليهم بل إلى أنفسنا.

حدّث نفسك عند زيارة القبور، أن أيها القلب الواله، راجع نفسك مرات عدة في السنة، فهؤلاء كان بعضهم يحرص على جمع المال وانفقوا العمر في طلبه جاهدين. فما حملوه معهم منه؟ صار الآخرون يأكلون منه ويشربون، وقد لا يذكرون أصحاب أموالهم حتى للحظة واحدة.

وقد يكونون ممن سخر القلب والروح للزوجة والأبناء. فبِمَ نفعوه اليوم يا ترى؟ فقد تكون زوجاتهم في عناق مع غيرهم أو أزواجهم قد استعاضوا عنهن بزوجات أخريات. أما أبناؤهم فلا يزورون مثوى آبائهم بل لا يمرون بها مرور الكرام حتى لمرة واحدة في السنة.

الشغل الشاغل لبعضهم كان التفاخر ولبعضهم التكاثر ولآخرين المباهاة بالمال وأحياناً بالجاه. فأين الجاه وأين المال؟ وأين الأقرباء وماذا حل بالأحباء؟

قال رجل لأبي ذرّ رحمه الله: مالنا نكره الموت؟ قال: لأنّكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران الى خراب؛ قيل له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ قال: أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأمّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه؛

---

١ـ سورة السجدة، الآية ١١.

قيل: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: أعرضوا أعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الأبرار لفي نعيم وإنَّ الفجار لفي جحيم﴾، قال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: إنّ رحمة الله قريب من المحسنين.

جئتك بهذه الحكاية لتعرض نفسك في جميع الأحوال، لا سيما عند قراءة القرآن على آياته. فالقرآن، حقاً، لأفضل ميزان ومقياس.

على كل حال، أيها العزيز، كلنا أسرى في وادي الطبيعة، نطمح للفوز باللقاء. وقد أرسل إلى الوادي حبل هو التفكير والتأمل. إقبض على الحبل وانتشل نفسك به من عالم المُلك والطبيعة إلى عالم الأمر والملكوت. وكأنك يوسف والسلطان بانتظارك.

كم من عقدة فتحت بالتفكير حتى الآن؟ فبه كم من قضية تم حلها، وكم من مشكلة تيسرت وكم من شك وحيرة تحولت عندك إلى يقين؟ فلماذا، إذاً، تغفل عن فضل التفكير؟ ولكن، إعلم أن التفكير الذي عناه رسول الله ﷺ في حديثه:

«تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

هو التفكير الذي يكشف لك حقيقة الأشياء ويوصلك إلى خالق عالم الوجود وكنه الأسماء والصفات.

إهدأ هنيهة وأمعن التفكير فيما أنعم الله به عليك منذ لحظة لم تكن فيها أكثر من نطفة وحتى الآن.

اذكر ما يقدمه لك من خدمات كل من أعضاء جسمك لإسنادك في الحياة. أطبق جفنيك واجهد لتوصل نفسك من الغرفة إلى باحة الدار

لترى فضل العين عليك. واربط يدك لساعة بعنقك لتدرك عـونها لك. أخطُ عدة خطوات على قدم واحدة لتقدّر ساقك حق قدرها و... .

تعلم أن الحديث يتواصل مـهما أريـد الكـلام فـي هـذا السـياق. فاستنبط بنفسك ما لم اكتبه لك واصغ بأذني روحك إلى ما لا ينساق على لسان ثم ادرك إلى أي مدى يحبك الله! فمع حيازتك مثل هـذا الحبيب، هل لك أن تعشق غيره؟! أو أن تطلب العون من سواه؟ فـهو خير ناصر ومعين. هذا ألتفكير هو التفكير المنعش الذي ينساب عليك بروافد المعرفة.

وبعض التفكير يستلزم معارف لم أحدثك بعد عنها، وهو التفكير في ملكوت العالم والنفس الإنسانية وصفات الحق تعالى وأفعاله وأسمائه، وهو ما ننتظر ظفرنا به. سوف أحدثك عنه لاحقاً إنشاء الله.

## «اليقين»

إجلس معي في هذا البحث على بساط اليقين:

إعلم أن المعرفة لعلى درجات، فاما الوهم والحدس والظن والشك، فلا بد لنا أن نقول إنها أسس العلم. ومع أنه لا سبيل لهـا إلى سـاحة حضرة العلم، ولكنك إن تجاوزتها تسلمت سدة اليقين. وأول مرتبات السمو إليه هو علم اليقين ثم في المرتبة التالية تبلغ حق اليقين وعين اليقين. وللبعض رأي في تسلسل هذه المراتب على نحو آخر. ونـحن هنا لسنا بصدد الكلام حول ذلك.

فأنت عندما ترتقي كل هذه المراتب تستند إلى عرش اليقين. هـنا تطلع عليك شمس المعرفة، وينجلي ليل الجهل بصبح بديع.

إن أعلى قمة جبلية في العالم هي (ايفرست) على جبال هملايا في الهند. وهل يعلم الجميع ذلك؟ شخص ما يجهل ذلك تماماً، وآخر يعلم ويخيل إليه أنها تعلو جبل مدينته بعشرة أمـتار. وآخـر تـنبه لـلمعنى الأساسي بمطالعة كتاب الجغرافيا وهو يعلم موقعها جـيداً. وغـيرهم

يرى أن «إيفرست» قمتها، وآخر شاهد مظهرها في الأفلام او الصور، وآخر قضى الأشهر يتسلقها حتى اعتلاها وراح يتطلع من قـمتها إلى الأرض والسماء. فهل تفهم مراتب علم كل من هؤلاء حول هذه القمة الجبلية ذاتها؟

قس الحال على نفس الوتيرة فيما يخص مـعرفة اللـه والتـوحيد ومعرفة رسول الله وعترته والموت والبرزخ ويوم الحسـاب والجـنة والنار أيضاً.

ومع أن اليقين التام يحصل بعد موت الإنسان، ولكن، هذا الكلام لا يمكن سحبه على شخصية رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. ففي ليلة المعراج كان النبي ﷺ يتطلع إلى الأمور جميعاً بعين اليقين. وقد قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

«لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً».

في هذا المجال كان للإمـام عـلي عليه السلام مـعرفة لا تـعلوها مـعرفة، كوثوقك التام وأنت تقف في مرامي شـمس الظـهيرة أن الوقت نـهار وليس ليلاً.

ومع أن أكثر المفسرين يذهبون فيما يخص الآية: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾،[1] إلى أن اليقين فيها يعني الموت وهـو يـقين يـتلقاه الجميع بعد الموت، ولكن طوبى لمن يـظفر بـذلك اليـقين، ويـتضمن انزياح الحجب جميعاً، في نفس هذه الدار.

---

١ ـ سورة الحجر، الآية ٩٩.

ومع أن التكليف الشرعي والواجبات العبادية لا تسقط عن أحد حتى لحظة الموت، مهما اختلفت نواياهم، ولكن كلما انحسرت حجب عالم المادة تنطبع النوايا في العبادة بنقاء وخضوع أكبر.

فيا ايها العزيز!

هذااليقين حاصل، ففي تلك الدار ليس لك عن مشاهدتها حائل والموت قادم. أَوَ لم تسمع قوله تعالى عن الكفار:

﴿وكنا نكذب بيوم الدين. حتى اتانا اليقين﴾.[1]

لما تغدو التقوى متكاملةً والفكر نافذاً سوف يتمثل مقام اليقين أمام بصيرتك. ولهذا جئتك بذكر هذا المقام بعد التفكير. والآن تأمل في حكايات أذكرها لك من كتاب الكافي:

«روى الإمام الصادق عليه السلام:

أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

– كيف أصبحت يا فلان؟

قال:

– (أصبحت يا رسول الله موقناً).

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال: إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟

---

١ ـ سورة المدثر، الآيتان ٤٦ و٤٧.

فقال:

- إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحُشر الخلائق لذلك. وأنا فيهم وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

- هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان. ثم قال:

- إلزم ما أنت عليه.

فقال الشاب:

- ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك.

فدعا رسول الله ﷺ، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستشهد...».

رأيت كيف يخترق اليقين حدود الزمان والمكان حتى يبلغ الأبد. إنه يُظهر لك المجهولات ويسمعك ما لا يُسمع ويكشف لك عما لا يُرى.

يقول رسول الله ﷺ:

«من أقل ما أوتيتم: «اليقين، وعزيمة الصبر». ومن أعطي حظه منهما، لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار».

وذات يوم سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام بعد قوله: (ليس شيء إلا وله حد؟ أن ما هو حد التوكل. فقال عليه السلام: اليقين. فعاد يسأله: فما حد اليقين؟، قال عليه السلام: ألا تخاف مع الله شيئاً.

أو تعلم أنك لو بلغت هذا المقام يعمّك الشعور بالأمان والهدوء التام فيرحل الهم والحزن والخوف عن ربوع قلبك، لأنه يرى الله شاهداً عليه في جميع الظروف. لا تقطب حاجبيك إزاء أي من آلامه، ولا تبتئس لأي حادث طارىء لأنك تعلم أن يد الله معك ونعم اليد الرحيمة.

ومن آثار اليقين الأخرى، أنك تصبح لا فرق لديك بين رضا الناس عنك عند انصياعك لأمر الله أو عدم رضاهم، فسواء لديك ذمهم ومدحهم.

يروى أن بعض الناس يظهرون لأهل التوحيد في منظر النياق. وينال الإنسان مثل هذه المنزلة عندما لا يكون لتواجد الناس أو غيابهم أدنى تأثير في نمط أدائهم لعباداتهم.

* * *

استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«ان العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين».

ولكي لا يخيل إليك أننا بلغنا مرحلة اليقين، دعني أسألك:

- هل تلقي نفسك في النار؟ لا، لأنك لعلى يقين مما تتسببه من الحرق.
- وهل تلمس الأقذار والنجاسات؟ لا، لأنك على يقين مما ينجم عن ذلك من تلوثات.
- وهل تتناول السم؟ لا، لأنك على يقين من فعله القاتل.

فلو كنا على يقين من صدق النار، فكيف كنا نتجرأ على التمرغ في أوحال المعصية؟!

ولو كان لنا حظ من اليقين بأننا جميعاً نقف بين يدي حضرة رب الأرباب. وكيف نتجرأ على التصرف بصلافة في حضرته؟!

جاء في كتاب مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام:

«اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب. كذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله عن عظم شأن اليقين حين ذُكر عنده ان عيسى ابن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء. فقال صلى الله عليه وآله: لو زاد يقينه لمشى على الهواء. فدلّ بهذا على أن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله كانت تتفاضل على حقيقة اليقين لا غير ولا نهاية بزيادة اليقين على الأبد، والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوة اليقين وضعفه، فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبرّي من الحول والقوة إلا بالله والاستقامة على أمر الله وعبادته ظاهراً وباطناً، قد استوت عنده حالة العدم والوجود، والزيادة والنقصان، والمدح والذم، والعز والذل، لأنه يرى كلها من عين واحدة ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب ورخص لنفسه بذلك، واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أمر الدنيا وجمعها وامساكها مقراً باللسان، أنه لا مانع ولا معطٍ إلا الله، وأن العبد لا يصيب إلا ما

رُزق وقسّم له، والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه».[١]

ومن اليقين يظفر الإنسان بالرضا والتوكل فيفوض أمره الى الله، وهو عندما يقرأ الآية: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾،[٢] يكون على يقين بأن الله مدبر جميع شؤونه.

فيا من التوكل عليك ماء حياتنا! يا من في رضاه روضة وردنا وريحاننا؟ يا من اليقين بك منتهى كمالنا! القلب لا يهنأ في هذا العالم إلا إلى جوارك. لا نسلك إلا دربك، ولا نتقصى سواك.

يا من وجوده، للجميع، غنى عن العالمين! ويا من وجوده كفاف للأجمعين! لم أجلس إلى مائدة إلا وكنت أنت صاحبها، ولم اتلق حناناً ورأفة إلا كنت أنت مصدرها. اينما ينساق قلبي كنت أنت هيامه. كلّما مدّت يد معينة، اسنادها كان منك، ومن اهتدى إلى سبيلك إنما كان بنور هداك!

إلهي!

اقطع عنا أيادي الأغيار! شدّنا إليك فإنك صاحب القلوب المتيمة

دعنا نستعرض في مقام اليقين آراء بعض العظام، حيث يرى:

- ابو عبد الله الانطاكي بان قليلاً من اليقين لو يصيب القلب ليملأه نوراً ويزيل عنه الشكوك ويشحنه بالشكر وبالخوف من الله عز وعلا.
- وابو عثمان الحيري بأن اليقين هو أن لا يحزنك غدك.

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٨٤.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٣٧.

- وابو عبد الله الحفيف بان اليقين هو استبصار الرأس بأحكام الغيب،
- وسهل بن عبد الله بانه حرام على قلب اشتم رائحة اليقين ويلتفت بعد ذلك لغير الحق سبحانه وتعالى.

## «المجاهدة والرياضة»

المجاهدة لغوياً تعني بذل الجهد والرياضة: «تأهيل المتوحش. وهو اصطلاح يستخدم غالباً فيما يخص تأهيل مهر الفـرس. فـلتعلمن أن نزق النفس أعتى منه عند أي حيوان متوحش، فأي شخص قد ينأى أساساً عن النزق على مر حياته ولكن ما أدراك كيف يـجرفك نـزق النفس، لو غفلت عنه حتى للحظة واحـدة، فـيلقيك فـي قـعر جـهنم خاسئاً. فالإنسان المصاب بالصرع قد تنتابه النوبة فجأة وهو يجلس سليماً صامتاً وهادئاً فيسقط على الأرض من حيث يدري ولا يدري ما فعل به ذلك.

فيا ايها العزيز!

لا تتصورن أنك ببلوغ هذا المقام والوصول إلى هكذا مرتبة قتلت النفس وصرت منها آمناً. مازال الأوان مبكراً للحظوة بمثل هذا الشأن والمقام. فذاك مقام المخلَصين، ومـا زال دربـنا إليـه طـويلاً. فـعندئذ يمكنك أن تركن إلى نفسك لا إلى الشيطان لأنها تكون قد بلغت مقام

اليقين فيخاطبها ربك:

﴿يا ايتها النفس المطمئنة، إرجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[١].

وتكون قد التحقت بزمرة المخلصين، ولا سبيل للشيطان إلى مواقعهم، لأنه:

﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المُخلَصين﴾.[٢]

إذاً، احترس من النفس حتى ذلك المقام.

سُئل عارف كيف تتم مراقبة القلب، فقال بأنها تتم كما تجلس القطة أمام جحر الفأرة مترقبة.

قسماً بروحك الزكية أنك لو تعزف عن اصطياد نفسك لاصطادتك.

لا بأس أن تطبق دفتري وتعرج على ديوان الشاعر مولوي، فتقرأ فيه حكاية «الحاوي المغفل» حيث يرتجز:

مار گير اندر زمستان شديد

مار مى‌جست اژدهاى مرده ديد[٣]

فقال الحاوي: وإن كان التنين ميتاً ولكن، جمهور كبير قد يتوقف لمشاهدته. إنهم يتشوقون لكل لهو ولعب ولا يعرفون قدر أنفسهم. إن

---

١ ـ سورة الفجر، الآيتان ٢٧ و٣٠.

٢ ـ سورة (ص)، الآيتان ٨٢ و٨٣.

٣ ـ معناه:

- «الحاوي راح يبحث في الشتاء القارص، عن ثعبان فوجد تنيناً ميتاً».

هذا الدر المستخرج من محاره (صدفه) وخُلق العالم لأجله، قد يضحي بنفسه أحياناً لأجل حشرة. يقضي السنين تلو السنين يتقصى تفاصيل حياة النمل والحشرات متناسياً نفسه:

خويشتن نشناخت مسكين آدمى

از فزونى آمد و شد در كمى[١]

سحب الحاوي ذلك التنين الضخم حتى بغداد فوصل بغداد ليلاً وبسط للتنين بساطاً إلى جانب النهر. وفي الصباح نادى في الناس للتجمع والمشاهدة، أن: هلموا فقد آتيتكم بما لم تروا ولم تسمعوا به، أن

كاژدهاى مردهاى آوردهام

درشكايش من جگرها خوردهام[٢]

كان التنين يغط في نوم شتوي وبرودة الجبال قد دبت فيه الخمول والاكتئاب. والحاوي المغفل يتصوره ميتاً:

اجتمع أهل بغداد إليه في غفلة من أمرهم، وكل يدعو أقرباءه وأصحابه للمشاهدة، فانه يحدث كثيراً أن يغدو الإنسان ضحية لجهل الآخرين. وربما لا يقدر الجاهل على تحمل نار جهنم وحيداً لفرط

---

١ ـ معناه:

– مسكين هو الإنسان لا يعرف قدر نفسه، جاء في عظم وصار إلى صغر».

٢ ـ معناه:

«أتيت بتنين ميت، تجرعت لاصطياده الويلات».

حبه! فيجر غيره أيضاً معه.

ومع تجمهر الناس وانتشار أشعة شمس الظهيرة، دب الدفء في أوصال التنين وبينما الحاوي منهمك في سرد عجائبه والناس في لهفة لإجلائه الستر والحجب عن تحفته وإذا بالتنين:

مرده بود وزنده گشت او از شگفت
اژدها بر خويش جنبيدن گرفت
خلق را از جنبش آن مرده مار
كشته نشان آن يک تحيّر صد هزار
با تحير نعره‌ها انگيختند
جملگان ازجنبشش بگريختند
ماركيرز ترس برجا خشك گشت
كه جه آوردم من ازكهسار و دشت[1]

ابتلع التنين الحاوي أولاً ثم مجموعة من المشاهدين، وقضت مجموعة منهم تحت أقدام المتدافعين.

---

١ ـ معناها:

- كان ميتاً وعاد إلى الحياة، فيا للعجب، التنين صار يرتعش ويهتز».
- «دهشة الخلق، وهم يرون قفزة ذاك التنين الميت، تضاعفت مئات الأضعاف».
- «تعالت صرخاتهم وهم يولّون جميعاً، هاربين أفزعتهم قفزته».
- «الحاوي تصلب في مكانه خيفة، أن ماذا اصطحبت معي من الجبال والبراري».

بعد ذلك وَلّى التنين إلى الجبال، ويل للحاوي غدا فريسة للتنين الفتاك وألقى بغفلته أبناء مدينته في أحضان الهلاك.

أيها العزيز! جئتك بهذه الحكاية لتعلم انك تنصلت من مرتع الثعابين متجهاً إلى الحدائق والرياحين. ولكن احترس، فقد هلك الثعبان الخارجي ومازال الداخلي، وهو نفسك أنت، خاملاً مكتئباً، إحذر! فقد يعيده إلى الحياة دفء العيون الساحرات وذكر غوالي الشهوات.

ألم تسمع حكاية النبي يوسف عليه السلام في مجلس طرب زليخا، يلتجيء إلى الله مستعيذاً ولا يجدن لنفسه منها، إلا في ظل الرأفة الالهية أماناً؟ فيقول كما يذكر القرآن الكريم:

﴿وما ابرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾.(١)

لا تعترضن إلى أين اسحبك معي؟! فالطريق وعر والزهو بالنفس للحظة يسقطك أرضاً حتى لا تقدر على النهوض ثانية. تنبه إلى جوارحك وأمعن في مراقبة نفسك، فإن الطريق وإن كان حافلاً بالعناء، فعقباه ينتهي إلى هناء. اترك مراتع الأشواك مستعيناً به، عساك أن ترد إلى روضة الأزهار متوكلاً عليه. إمض في البراري لتبلغ كعبة الآمال. فقسماً بلقائه الفريد إن هو يفتح أمامك أبواب رحمته للحظة ينجلي عنك ما أرهقك من ألم وعناء طوال عمرك.

والعجب أن الله حدد المجاهدة دون سواها شرطاً لافتتاح أبواب الملكوت والفوز بجنات وصاله:

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٥٣.

يقول تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾.[١]

والجهاد هنا يكون على صعيدين: مقاتلة العدو ومصارعة النفس. وإن كنت دقيق الملاحظة تجد أنهما نفس المجاهدة، إنها مواجهة الميول والرغبات النفسانية التي تطالب من المأكل بأطيبه ومن المنام بأهنئه ومما يُرى بأحسنه ومما يُسمع بألذه.

فواجه طيب مأكلها بسلاح الصوم وقلة الطعام، وأحياناً الامتناع عن لذيذ من المأكولات والنعم.

وهناء نومها بأن تجانف السرير في الأسحار فتجلس إلى ربك مناجياً وأن ترتضي أحياناً بالأرض فراشاً فتكون برسول الله ﷺ متأسياً.

وعن حسن مرامي البصر، أطبق جفنيك وأنت تنظر إلى المليحات واقعد لناظريك متربصاً مترقباً.

وعن لذة مسموعاتها، أمل على نفسك بالسكوت وأنت للسباب، خلال معاشرتك للآخرين، متلقياً وكن لنفسك بلياقتها، لمثل هذا السباب، محدّثاً.

ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

المأوى﴾.[١]

واصغ لنبيك ﷺ يخبرك أية جنة هي هذه الجنة:

«للجنة باب يقال له: باب المجاهدين يمضون إليه فاذا هو مفتوح والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم».

إنك لن تجدن نفسك في أمان من نفسك قط فبسمتها نداء نقمة وعسلها الحلو وبشائر لذعة مرة. تقابل مرونتك باستعار لهيب نارها ونصحك بتجاهلها ولك في العبادة اعلاناً عن مخاصمتك لها.

استمع إلى الإمام علي عليه السلام يقول:

«ان المجاهد نفسه على طاعة الله، وعن معاصيه، عند الله سبحانه بمنزلة بر شهيد».

ويروى عن أبي ذر الغفاري (ره) أنه قال:

- «قلت: يا رسول الله! أي الجهاد أفضل؟

- قال: أن يجاهد الرجل نفسه وهواه».

والآن نعود الى مصباح الشريعة فنقرأ فيه حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام:

«طوبى لعبد جاهد لله في نفسه وهواه، ومن هزم حينئذ هواه ظفر برضا الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى، فقد فاز فوزاً عظيماً. ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى،

---

١ـ سورة النازعات،الآيتان ٤٠ و ٤١.

وليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى اللـه سـبحانه، والخشوع والجوع والظماء بالنهار، والسهر بالليل. فإن مات صـاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أراه عاقبته إلى الرضوان الأكبر.

قال الله عز من قائل:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمـع المـحسنين﴾. وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبّخ نفسك وَلِهاً وعيّرها تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي وسقها كالرائض للفاره التي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلا وقد صحح أولها وآخرها. وكان رسول الله ﷺ يصلي حتى تتورم قدماه، وقال: أفلا أكون عبداً شكوراً. أراد ﷺ أن تعتبر به أمته، فلا يـغفلوا عـن الاجتهاد والتعب والرياضة. بحال ألا أنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها وإستضأت بنورها لم تصبر عـنها سـاعة واحـدة ولو قطعت إرباً إرباً. فما أعرض من أعرض عنها إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق».[1]

١ ـ مصباح الشريعة، الباب الثمانون.

## «الاستقامة والثبات»

**﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.[1]**

من المخاطر التي يتوجب أن أحادثك عنها: «التلون». فأنت لو أحسست بما فيك من تغيير في الحال لا تذهبن إلى أنه خاص بك بل بالجميع. كان رسول الله ﷺ يقول: «لي مع الله حالات»، ولم يقل «حال». فحاله وهو يحلق في الملكوت ليست على مثلها وهو يجلس إلى أبي جهل. ولكن ما هو مسلم به أن اختلاف الحالات هذه لا يعني اختلاف في رفعته وفي سمو شأنه. فما دام الحال هكذا، انظر وتأمل كم يظهر عندنا اختلاف الحالات هذا. فمهما شهدت انحطاطاً في حياتك ودنواً في شأنك اعلم انه لا انحطاط للإنسان في أجواء الجذبات الرحمانية والسمو الروحي.

إذاً، تمهل لتجهد في تجنب التلون والنفاق. لا تتمثلن بالديك

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٣٠.

الرومي بل بالطاووس، ليكون حظك من الجمال دائماً، فعبد الله قلبه مع الله في كل حال. وهو في سعادته شاكراً له، وفي قبضه ملتجئاً إليه وفي طلبه متقصياً له وفي بلائه محتسباً وفي فقره قانعاً وفي غناه جواداً وفي قدرته منصفاً وله في حاجته بالذات الغنية ملاذاً.

فقلب المؤمن أينما تقذفه يعود إلى مستقره وكأنه المغناطيس أينما يكون يشير إلى نفس الجهة.

فليس لي ملاذ في النسلوك أفضل من الاستقامة. فكل ما تحرزه إنما تحرزه بفضله. ولو كنت ترجو انفتاح أبواب المعرفة بوجهك، تثبت واستقم على طريقتك،لتنعم بما بشرك به الله سبحانه وتعالى حيث يقول:

﴿وألَّوِ استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً﴾.[1]

وقد عبّر الإمام الصادق ﷺ عن هذا الماء بأنه ماء حياة المعرفة.

والسالك لا بد له أن لا يتنحى عن مسيرته وإن خلت الأرض من أي مؤمن سواه. كثيرون هم السالكون الذين أخضعهم الله لبلائه فتخلوا عن الطريق في خطواتهم الأولى. وأنت لست في مأمن من مثل هذا الخطر أبداً. من هنا، تجدن نفسك تردد يومياً وأنت تقرأ سورة الحمد في صلواتك الخمس أن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾، مع أن الهداية في هذا الطريق سنت لمرة واحدة. فالتزم بترديد هذه الآية من أعماق قلبك، فخطر الانحطاط يعترضك في كل حين وزمان.

---

١ ـ سورة الجن، الآية ١٧.

ومالك في طريق سلوكك أدهى من خطر معاشرة الأشرار. فـانهم يقصونك عـن درب السـعادة والهـناء، ويـجرونك إلى وادي التـعاسة والشقاء بكل قسوة وجفاء.

وأول مراحل ثبات واستقامة السالك هو ثباته في إخلاصه ونـقاء نواياه، أي أن يصونها من الخلل، وأن يصوّب وجهه لله تعالى ما دام في الطريق إليه سالكاً. فيترنم بالآية:

﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.[١]

وثاني مراحل الاستقامة على الشريعة المحمدية هي أن لا يـخطو خطوة واحدة على طريق الحرام بل يتجنب حتى المكروهات. فكـل خطوة في الحرام تدنيه خطوة من النار:

﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾.[٢]

وثالث مراحل الاستقامة في الحال هي أن لا يتهاوى فـي خـضم معاشراته من السماء فيسقط بين الفينة والأخرى فـي الحـضيض، أن يرقب نفسه فلا يدير ظهره قط لله. فهو لو واصل الدرب مـتثبتاً ولم يعتره التوقف أبداً فإنه ممن قال عنهم الله عز وجل:

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.[٣]

وأنت أيها العزيز لملاقٍ في هذه الاستقامة الآلام والمعاناة وتتحملن

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٤.

٣ ـ سورة النور، الآية ٣٧.

الكثرة من المضايقات. ولكن اعلم أن في كل عنائه غناء وبعد كل ضيق فرج. كن مِسكاً يتصاعد عبيره مهما قلبته الأيدي، تارة إلى الأعلى وأخرى نحو الأسفل.

## «الخوف والرجاء»

الخوف هو الشعور بالرهبة إزاء مقام الرب ذي الجلال.

والرجاء هو الطموح والتعلق بالحبيب ذي الجمال.

وأنت ملزم بأن يكون قلبك مفعماً بهذين الحالين دوماً، فأنت متيّم بحبيب هكذا يوصف إن كنت تعرفه. فحقاً خليق بجلاله وعظمته أن تنهار جميع الكائنات لأدنى دلال منه وحقاً لجماله الفريد أن تعم رحمته جميع الكائنات بكل غمزة منه. والآن روّض نفسك على أن ترتعد فرائصك كلها خوفاً منه وأن لا يجعلنك الرجاء في نيل رحمته مستنكفاً من الوقوف مستجدياً على بابه.

لا تغترن عند نظره إليك بعين المنعم بل تذكر اسمه المنتقم ولا تيأسن عند نظره إليك بعين المنتقم فأبصر اسمه «المنعم».

ايها العزيز!

خليق بصاحب العزة الاعتزاز. وطريق الوصال لا بد أن يكون طويلاً لتعرف قدر الوصال. فكلما تنبهت إلى عظمة مرامي عزه تزداد

شعوراً بذلك، وتوسعتْ معرفتك بغناه تزداد وعـياً بـفقرك وحـاجتك، وتجلى علمه أيقنت بفظاعة جهلك. فما عسانا أن نفعل وثمن وصاله الغفلة عن الذات.

عن الحارث بن المغيرة عن الإمام الصادق ﷺ، قال: قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: «كان فيها الأعاجيب وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببرِّ الثقلين لعذبك. وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك». ثم قال ﷺ: «كـان أبـي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا (و) في قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا. ولو وزن هذا لم يزد على هذا.»

❊ ❊ ❊

وكيف لنا أن لا نهاب غضبه وقد عصيناه في ساحته وهـو مـالك الملك ذو الجلال والإكرام، أو أن نقنط من رحمته وهو يحتضن كـل شيء في كنفه. وأنت وِهِبْتَ كل ما تنعم به حالياً من عـنده دون أي استحقاق منك؟

على هذا مد يدّك إليه تستعطيه، وتشبث به بالأخرى لعلك تأمن من عذابه.

فيا أيها العزيز!

لتعلمن أن الدنيا مخلوقة والآخرة كذلك. وما تراه من صفات الحق تعالى إنما هي تجليات خاصة بـهذه النشأة تـظهر لنـا مـن وراء ألف

حجاب. يروى أن نار جهنم غسلت ألف مرة بالماء حتى استخرجت منها نار الدنيا. ونقرأ في القرآن الكريم عن اسمائه الحسنى ونعمائه:

﴿كلما رُزقوا منها من ثمرة زرقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾.[١]

وفي نفس هذا العالم المشهود تجد من مظاهر الألم والهموم والمرارة والمعاناة واللذعات الكثرة وإلى جانبها الكثرة من مظاهر النعم والسرور والحلاوة والرحمة والمسرات.

وتوثق أنها جميعاً من عنده هو. فلو كنت تعلق آمالك في الدار الآخرة على مسراتها وهي أضعاف لا تحصى من ملذات هذه الدنيا، ترهب إلى جانبها من ألوف أضعاف من معاناتها قياساً إلى معاناة هذه الدار.

ولما كنت قد تتجنب كل لذيذ حفاظاً على سلامة بدنك الفاني وتُمسك عنها راجياً نيل سعادة لها صورة في السراب، وتمضي جاهداً السنين فتسلب ذاتك الراحة خوفاً من الفاقة والحاجة، فكيف لا تعقد العزم لتحاشي الذنوب أماناً من عقباها وهي تتجرع مثل هذا العذاب؟! وكيف لا تتجلدن إزاء عناء العبادة، ولها ما لها من نهاية سارة في جنة خالدة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك. فان كنت ترى أنه

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥.

لا يراك فقد كفرت. وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك».

وسئل ﷺ عن قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت؟ فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني كذبوا ليسوا براجين، إنَّ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه.

وفي موقف آخر أخبر ﷺ إنَّ قوماً من مواليه يُلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو، فقال: كذبوا ليسوا لنا بموالٍ أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف من شيء هرب منه.

فان كنت غير مصدق بما يجري عليك، احمل القرآن ففيه تجليات صفاته ومظاهره.

وفي نفس هذا السياق، يأتي الكلام في كل حين مبشراً إلى جانب ما يكون منه منذراً، وأينما ينساق ذكر النعيم يعقبه الوعيد بالجحيم.

فجنته، كلّ ما فيها خلاب وناره عذاب. اينما نرى، إزاء عمل، بحورِه العين يبشرك، ترى بعدها بالنار ينذرك. فأنى لنا أن نولي وجوهنا شطراً آخر مع الإيمان بصدق هذه الآيات؟

في القرآن الكريم يكثر الكلام عن الخوف، فقلما تجد من تستولي عليه الرهبة، فأكثر الناس يمنعهم الرجاء الواهي عن الالتزام بالعبادة، ولكن اعلم أن الخوف من الله ينبوع كل الخيرات.

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي

المأوى﴾.[١]

ولكن تكرر ذكر الرجاء إلى جانب الخوف إبان الحديث عن صفات الأبرار في عدة مواقع من القرآن الكريم، مثل:

﴿وتتجافي جنونهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾.[٢]

إلا أنك سوف تزداد خوفاً كلما ازددت حظاً من العلم والمعرفة حيث يقول عز وجل:

﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾.[٣]

وقد خاطب رسول الله ﷺ الناس قائلاً:

«إلا وان المؤمن يعمل بين مخافتين:

بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه،

وبين اجل قد بقي لا يدرى ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته. وفي الشيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات، فوالله الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلا الجنة والنار».

ولكي تطلع على فعل الرجاء فيك استمع إلى رد الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل في قول الله عز وجل ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، فقال: «من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول من خير وشر فيحجزه ذلك عن

---

١ ـ سورة النازعات، الآيتان ٤٠ و٤١.

٢ ـ سورة السجدة، الآية ١٦.

٣ ـ سورة فاطر، الآية ٢٨.

القبيح من الأعمال فله جنتان».[١]

وعنه ﷺ أيضاً:

«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يرجو ويخاف».

ألا ترى المزارع ينثر بذوره خريفاً رجاءً في المنفعة ويرش السموم خوفاً من آفات الزراعة. فمن ذا الذي يترك الأمور وشأنها ثم يدعي رجاءه في المنفعة أو خوفه من مضرة دون أن يخطو خطواته نحو تحقيق الهدف!

إذاً، نفس هذين الخوف والرجاء، هما مصدر جميع مبرات الإنسان. والخشية والأمل أساس كل جهد وحركة. فكيف للإنسان أن يواصل العيش هانئاً وهو لا يعرف أين هو موقعه ومكانته؟ وكيف للنعاس أن يتسلل إلى مقلته ليلاً وهو يجهل إلى أين ينتهي مصيره؟ كان قلب رسول الله ﷺ مفعماً بالحزن دوماً وهو يؤكد للناس أنهم لو كانوا يعرفون ما يعرف لقل ضحكهم وكثر بكاؤهم وازداد.

ففراغ بالك من الأحزان سببه الشحة، شحة معرفتك، حيث جاء في، الذكر الحكيم:

﴿لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين﴾.[٢]

ويقول أحد العظام بأن الإنسان لو يخاف النار كما يخاف الفقر

---

١ ـ مجمع البيان، ذيل الآية.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٧٦.

لدخل الجنة.

ولهذا عندما تستولي نار الخوف على القلب يخسأ الشيطان وتُهزم الشهوة ويسكن القلب مع ذكر الله. عندئذ يهب نسيم الرجاء على ربوع القلب ويغدو خليقاً بك أن تحلق بهذين الجناحين على هذا الصعيد وهما ما نطمح إلى أن تصل بهما إلى ديار الحبيب إذا لم يصب جناحيك هذين الكلل والعطب.

## «حسن الظن بالله»

الآن وقد بلغنا هذه المحطة محلقين على بساط الكلام، بعد توقفنا في دوحة الخوف وروضة الرجاء. إياك أن تخفض من ثقتك بخالقك وربك على قدر شعرة.

أعد النظر فيما كان لك من يد ربّك الرؤوف بك من إشارات الحب لك منذ كنت جنيناً وحتى بلغت شأنك من نضجك!

جعلت في كيس من ماء، سابحاً، لكي لا يصيب أمك جراء تقلبك ضررٌ، وصوّرك في تلك الظلمات على أفضل وجه. وهو القائل:

﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.[1]

خلق لك حواساً خمساً وأطرافاً أربعة وهكذا القوى النفسانية والباطنية الكامنة والقدرات الجسمية المتفاعلة وثم أنه أرضخها كلها لخدمتك:

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٦.

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾.[١]

والرئتان عاطلتان لا وظيفة لهما في جوف الأم ولكنهما تستعدان للعمل حفاظاً على حياتك بعد انفصالك عنها. وقد زوّد جسم الفتاة والفتى بالرحم او عناصر الجنس الذكرية لتنفعك بعد أكثر من عقد من الزمن. وهذا أنموذج رحمة لمستقبلك.

وُظِّفَ القلب والرئتان والكليتان والمعدة والكبد والأمعاء، كلها لخدمتك. واستُخدمت ملايين الخلايا لتواصل بها حياتك. تلقت ملايين الخلايا في عضلة قلبك أوامر منه لتتكاتف على مدى عمرك فتعمل مجتمعة ليلاً نهاراً دون أي توقف بل تقفز ثم تخفق لحوالى ثمانين مرة في الدقيقة.

ولما فتحت عينيك على الدنيا وجدت مائدتين سخيتين قد بسطتا أمامك دون طلب منك، وهما ثديا أمك، التي جرها الحنان لرعايتك ولم تحب أحداً حتى الآن مثلما أحبتك.

هذا الحنان أجلسها الليالي إلى جانب مهدك ساهرة تترنم لك بنغمات الأم، وهي لأنسك طالبة، وضمتك إلى حضنها نهاراً ثم لقنت لسانك حرفاً ثم حرفين حتى بدأت تنطق رويداً رويداً.

أحياناً اصطحبتك إلى الحدائق والبساتين وأحياناً أجلستك على مقعدك في المدرسة الابتدائية حتى نميت وبلغت ما بلغت!

ثم تأمل خارجك! خلقت الأرض بساطاً تحت قدميك والسماء

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٧٨.

سقفاً لمسكنك:

﴿خلق السماوات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون﴾.[١]

ولكي لا ينقص رزقك في هذا المهد الواسع:

﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات. إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.[٢]

ولكي يسهّل عليك سقي مزروعاتك وبساتينك وتوفير ماء الشرب لنفسك والتنعم بالجلوس إلى سواقي المياه:

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾.[٣]

ولأنك تعجز عن اجتياز المسافات على وجه الأرض، وظف البهائم لخدمتك، ومدّ عقلك بفكرة صناعة المراكب والطائرات والقطارات لعصرك الحديث:

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾.[٤]

ولتسكن في هدوء ليلك وتقضي النهار في سعي متواصل خلق الليل والنهار لخدمتك وسخر السماءَ من أجلكَ:

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن

---

١ ـ سورة النحل، الآية ٣.

٢ ـ سورة النحل، الآية ١١.

٣ ـ سورة النحل، الآية ١٠.

٤ ـ سورة النحل، الآية ٨.

**في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.**(١)

ولتجميل مشاهد رؤيتك، خلق الدنيا بما هي عليه من جمال. ألم تتأمل مظهر البدر في منتصف الشهر؟ وهل نظرت إلى غمزات النجوم؟ وهل شاهدت الغيوم الحمراء عند غروب الشمس؟ ألم تنصت إلى ترنيمة سواقي المياه في سكون الليل؟ ألم تفكر بألوان الأزهار على اختلافها الشاسع؟ أوَ لم يتعلق قلبك بمنظر البراري الخضراء والأشبه بالإسفنج في فصل الربيع:

**﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون﴾.**(٢)

لا اعلم إلى أين ينساق كلامي؟ وإلى أين أرافقك؟ ولكي لا أنأى عن الموضوع أعود إلى نفس السورة التي آتيتك بآيات منها، وأنهي حديثي عن نعم الله عندها.

يقول تعالى:

**﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.**(٣)

إذاً، إلى متى نترنح في هذا الطريق اللامتناهي؟ أريد أن أسألك سؤالاً واحداً. ألا تحسب مثل هذا الرب رؤوفاً حناناً مناناً؟ أوَ لا تعتبر تعامل مثل هذا الخالق مع مخلوقه تعاملاً رحيماً؟ بم تجيب؟ وإلى أين

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١٢.

٢ ـ سورة النحل، الآية ١٣.

٣ ـ سورة النحل، الآية ١٨.

لك أن تهرب منه؟

«أين المفر».

أَوَلا يكفيك إلهك في إسنادك:

﴿أليس الله بكاف عبده﴾.[١]

يقول رسول الله ﷺ:

«قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كُنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع درجاتي العُلى في جواري. ولكن فبرحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا. فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ومَنّي يُبلّغُهم ورضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم. وبذلك تسميت».[٢]

* * *

أم موسى:

أرى أنك لم تعرفن في حياتك ينبوعاً أكثر رأفة من قلب الأم. ما هو مدى اطمئنانك إلى حنان الأم؟ يروى أن حنان الأم عليك لا يبلغ

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٣٦.

٢ ـ الكافي، باب حسن الظن بالله عز وجل.

جزءاً من مائة قياساً إلى حنان ربك. ولكن الريبة انتابتك حول محبة الله لك! وقد تعرض بال أم النبي موسى عليه السلام كذلك لمثل هذه الهفوة. هل تعلم متى؟

عندما قبضت على قِماط (لفافة) وليدها المدلل وهي تقف أمام نهر النيل الهائج صباحاً. أرهبها منظر أمواجه الثائرة، تسارعت دقات قلبها وارتعدت يداها وربما تساءلت في نفسها: إلهي! أَوَ أنت على العهد؟ رباه" أو لا تنسى صبيي؟!

ولكن شكها هذا لم يطل أمده فسلمت وليدها إلى رحمة الأمواج الثائرة بيدين مرتعدتين وهي تحملق للحظات في النيل حتى توارى صندوق الطفل عن ناظريها. أواه! ما أعظم تشوشها وهواجسها وهي تعود الى دارها دونه. ولكن ماذا حدث؟ سرعان ما دعيت الى قصر فرعون مرضعة فأودعوا طفلها العزيز في حضنها:

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.[1]

لنعرج إلى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول:

«وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال -وهو على منبره- والذي لا إله إلّا هو، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين. والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان

١ـ سورة القصص، الآية ١٣.

الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم، بيده الخيرات، يستحي أن يكون عبده المؤمن قد إحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه».[١]

* * *

أقسم بالله أنه ليس هنالك من مولى تحدث الى عبده على مدى الدهور بمثل هذا الأسلوب. فتأمل في ذلك.

فالمولى لا يجلس إلى جانب غلامه ويقرب نفسه إليه إلى هذا الحد، ولكن مولاك يقول:

﴿إذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع﴾.[٢]

جميع الموالي سواه يذكّرون عبيدهم على طول الخط بقدرتهم، ولكن مولاك يصف نفسه هكذا:

﴿نبّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾.[٣]

والأعذب من كل هذا هو ما اعتُبر اعظم خطاب مبشر من الحبيب، فاستمع إليه:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله

---

١ ـ الكافي، باب حسن الظن بالله عز وجل.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٨٦.

٣ ـ سورة الحجر، الآية ٤٩.

يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾.[١]

إذاً، عُد إليه، عُد ولا تبالي من أنت. عُد الى ساحته، ساحة الغفور الرحيم. هذا هو ربك، ففكر في نفسك: وهل يمكن أن تقنط عند حضرته؟ ولكن حذارِ أن يصيبك هذا الكلام بالغرور ويجرئك للَتمرد عليه، حيث يوضح الإمام الصادق عليه السلام معنى حسن الظن بالله في قوله: «حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك».[٢]

اسلك دربك إليه، فليس هنالك من سبيل أمامك إلا سبيله، تشبث ببابه فإنه مفتوح أمامك دوماً، واسكن في دياره ففيه أنت معزز مكرم.

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٥٣.

٢ ـ الكافي، باب حسن الظن بالله عز وجل.

## «الوفاء بالعهد»

لا يكونن من المؤمن كلام إلا أعقبه الالتزام به ولا عهد إلا انـتهى إلى وفائه به. لا تطالبن المؤمن بوثيقة فكلامه خير وثيقة، فإنه منصاع لأمر ربه الذي بلغه في الآية:

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.[1]

وأنت أدرى بأن وقار شـخصيتك يـتوقف عـلى مـدى تـمسكك بالتزاماتك، فإن رآك الناس تنكث العهد عدة مرات تنعدم ثقتهم فـيك وبكلامك فلا أحد يصدقك بعد ذلك.

ألا تعلم أن الإنسان مسؤول عن وعوده، وانه ملزم ببذل قـصارى جهده لأداء تعهداته ومواثيقه. وإن عجز فلا بد له أن يطلع من تعهد له على التفاصيل متحاشياً الخزي عند حلول موعده.

يقول تعالى:

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ١.

﴿أوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولاً﴾.[١]

استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له. فمن أخلف فبخلف الله بـدأ، ولمقته تعرض».[٢]

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

ويكرر الإمام علي عليه السلام في حِكَمِهِ أن نكث الوعود يستجلب غضب الله والناس أيضاً.

ومن الصفات التي يذكرها الحق تعالى في شأن الأبرار هو الوفـاء بالعهد كما في قوله عز وجل:

﴿.. والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾.[٣]

الآن، وقد بلغنا هذه المحطة، تمهل لاذكرك بعهد قطعته على نفسك ولم توف به.

فكّر أولاً هل يخطر على بالك شيء؟ أعلم أنك سوف تقول:لا. إنك قلما تذكر أشياء حدثت منذ عام.

قطعت العهد على نفسك هنالك أن لا تعبد إلا الله وأن لا يستعبدك

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٣٤.

٢ ـ تفسير الصافي، المجلد ٥، ص١٦٨.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٧.

الشيطان. فإلى أي حد التزمت بهذا العهد؟

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.[١]

هل ذكرت أم أنك مازلت في شك من ذلك؟ تمهل لأذكرك بمشهد آخر.

يقول الله عز وجل:

﴿وإذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى﴾.[٢]

كأنني آراك تتذكر. الآن أنظر كم تعبدت الشيطان والنفس حتى الآن رغم هذا العهد، فنأيت بذلك عن الله.

ولا يرى ربك من بد من أن يذكرك بأمره في الآية:

﴿أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾.[٣]

أعلم أن كل متثبت على ذلك العهد يلتزم بعهوده للناس أيضاً (فهم مخلوقات ربه) وبامكانه أن يرعى أمانة الله وعهده حتى النهاية فيشمله خطاب الآية:

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾.[٤]

---

١ ـ سورة يس، الآية ٦٠.

٢ ـ سورة الأعراف، الاية ١٧٢.

٣ ـ سورة النحل، الآية ٩١.

٤ ـ سورة المؤمنون، الآية ٨.

## «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

أيها العزيز!

تزينت خطوة فخطوة بزينة وهبها الله لقلبك وروحك. فإن أردت استزادتها، كن جواداً بجود يمنع الآخرين من كل تلوث تتحاشاه، ويزينهم بكل زينة ارتضيتها لنفسك حتى تحوّل ما يحيطك من أرض جدباء إلى روضة غناء.

تعلم أن المعروف يعني كل ما عرف، فلماذا سمي العمل الطيب معروفاً؟ لضرورة أن يكون مثل هذا العمل معروفاً في المجتمع أي أن يكون عاماً لا يتوقع من الناس غيره.

وتعلم ان المنكر يعني الغير معروف. فلماذا سمي الفعل القبيح منكراً؟ لأنه غير معروف في أي مجتمع سليم بل مجهول وغريب.

لابد أن يكون التعدي على أموال الغير والسرقة غريباً وحفظ الأمانات وعدم التعدي على أموال الآخرين معروفاً وشائعاً. فإن رأيت الواقع على غير هذا، فاعلم أن المجتمع ينحدر نحو الفساد. وقد قرأت

أن تحول المعروف منكراً من علامات حلول آخر الزمان وقرب طلوع فجر حكومة المهدي (عج) لتنجلي المنكرات عن وجه العالم. فكل من يصحبك في خطواتك على طريق هذا التحلي يعتمر قلبه بتأسيس مثل هذه الحكومة.

فإن كنت راغباً أن تصحب ائمتك وجميع الأنبياء على الطريق، أشدد حزامك لتصلح كل خلل اينما وجدته، وتزرع غرسه في كل أرض قاحلة تبصرها. هذا هو نهج الأنبياء والصالحين. لوكنت غير مصدق، استمع إلى الآية:

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾.[١]

ومما نصح به لقمان نور عينه:

﴿يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾.[٢]

كما أمر أن يكون فيكم فريق يبادرون إلى مثل هذه الأعمال. ربما كان ذاك من اختصاص من يرى في نفسه الجدارة واكتسب بعلمه الكفاءة:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾.[٣]

---

١ـ سورة آل عمران،الآية ١١٤.

٢ـ سورة لقمان، الآية ١٧.

٣ـ سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

ولا تتوقعن ثمرة كاملة ناضجة وفيرة لقيامك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد نصحك رسوله ﷺ أن تنصح ولكن نصحك لن يمضي إلا في قلب من يخاف الله وله قلب متيقظ. وسوف يعارضك التعساء ممن اسودت قلوبهم.

تمعن في هذه الآيات:

﴿فذكر إن نفعت الذكرى. سيذّكّر من يخشى. ويتجنبها الأشقى﴾.[١]

ومن المسلم به أن المجتمع الذي تناسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يغوص في أوحال الفساد، ويتهاوى إلى وادي الهلاك والفناء. ومن واجب عقلاء كل قوم أن يشحذوا الهمة لمثل هذا الأمر:

﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لَبئس ما كانوا يصنعون﴾.[٢]

تأمل في هذه الأحاديث لتتنبه إلى عظم المسؤولية التي يلقيها هذا الأمر الهام على عاتقنا:

يقول محمد المصطفى ﷺ:

«ولا تتركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الله الأمر أشراركم، وتدعون فلا يستجاب لكم».[٣]

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً، أنه قال:

---

١ ـ سورة الأعلى، الآيات ٩ – ١١.

٢ – سورة المائدة، الآية ٦٣.

٣ – كتاب سليم بن قيس، ص٤٤٦.

أوحى الله إلى شعيب النبي: اني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم. فقال عليه السلام: يـا رب! هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليـه: داهـنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي.

ولما سأل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ محدثيه عما يمنعهم عن إسداء النصح للمذنب لردعه عن إتيان الإثم وأجيب بأنه إعـراضـهم، أمرهم أن ينأوا عن مثل هؤلاء الأشخاص وأن يتجنبوا الجلوس إليهم ومعاشرتهم.

- قال النبي ﷺ: كيف بكم إذا فسد نساؤكم وفسـق شـبانكم. ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر.

- فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟

- قال: نعم، وشر من ذلك؟ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونـهيتم عـن المعروف؟

- قيل: يا رسول الله! ويكون ذلك؟!

قال: نعم وشر من ذلك. كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمـنكر معروفاً؟!».[1]

ولكم ترى المؤمن يُنعت سفيهاً ورجعياً ومجنوناً، والفاسق مـثقفاً وعصرياً ومحدثاً.

فلتعلمن أن المجتمع الاسلامي لا يتلقى ضرراً أعظم مما يأتيه من

١ - بحار الأنوار، المجلد ٥٢، ص١٨١.

تجاهل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فتجاهل هذا الأمر يجر المجتمع إلى حيث يتماثل فيه القبيح والحسن، ويغدو الذنب فيه أمراً طبيعياً، والفساد دارجاً والتلوث كما في بعض الأمراض معدياً عاماً.

من المتعذر عليك مواجهة مجتمع كهذا صامتاً غير مبال. فلزاماً عليك أن تردع أهل المعصية عن الإثم كلما رأيت الذنب يرتكب في أي مجتمع تحضره إن كان ذاك بمقدورك، ولو لم يكن، إنهض واترك المكان فوراً.

* * *

أذكر مرابياً كان يمتهن الربا لا غير، ويقيم مجالس العزاء للإمام الحسين عليه السلام تمويهاً للناس وللتعتيم على سوء سمعته. وفي بحبوحة المجلس نهض الناعي وارتقى المنبر فسلَّم على الإمام الحسين عليه السلام وقال: ايها الناس! إنكم لتعلمون أن هذا المكان وما فيه من مفروشات ومأكل ومشرب كله من مال الحرام. فارتياد هذا المجلس واستعمال هذه المفروشات وتناول الشاي فيه حرام، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وترك المنبر، فغادر جميع الحاضرين المجلس معه إلى بيوتهم. بهذا أغلق صاحب الدار دكان رباه وآل على نفسه أن يترك بعد ذلك المعصية. ليت جميع الوعاظ انتهجوا مثل هذا النهج في النصح والموعظة.

على أية حال، أوجز الكلام بأنه لا بد لك أن تنطق ناصحاً أو

تنهض معترضاً. «لا يحق لنا أن نتدخل في شؤون الناس» و«كل منا يتلقى كتاب أعماله، لا أعمال غيره، عندما يرقد في قبره» و... إنها أقاويل وأمثال لا محل لها في هذا المقام. فالمتلوث يسري عدواه ويلوث المجتمع. وأنت عضو في هذا المجتمع. ونارهم سوف تلتهمك أنت ومعارفك أيضاً. وأهون الأعمال هو اعلانك عن غضبك إزاء من يعصي أمر ربك، لا أن تبادله الحديث بحفاوة والضحك ببشاشة وتتناول من طعامه بشراهة ثم تقول نحن وكلاء على أنفسنا وهو على نفسه. فالكثير ممن اتهموا بالرهبانية ونُسب إليهم الاعتزال إنما تركوا مجتمعاتهم لهذا السبب.

من هنا يقول الله جلت عظمته:

**﴿كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[1].

ومدعاة تسميتنا بخير الأمم هي مسؤوليتنا في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أهملنا هذا الواجب، استمع إلى ما يؤول إليه مصيرنا فيما أنذرنا به رسول الله ﷺ حيث قال:

«يا ايها الناس! إن الله يقول لكم. مُرُوا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم».

فاعلم أن نظام أي مجتمع إسلامي وحكومته العادلة وقيام العدالة

---

١ - سورة آل عمران، الآية ١١٠.

فيه إنما يقوم على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانحطاطه يكون في ترك هذه الفريضة، حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر».

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أي الشهداء أرقى شأناً عند الله، وصفه بأنه من ينطق بكلام الحق عند سلطان جائر فيقتله.

هذا هو نهج المحبة، فمن علامات المحبة أن يثور ويفقد حلمه ويغضب اينما وجد الأوضاع تخالف أمر الحبيب ويبتشر وتنطلق أساريره أينما يراها تتماشى مع إرادة الحبيب. وكيف لك أن تدّعي انصياعك للمولى وحبه ويكون عندك سيان. أعمال الخير تؤدى طاعة له وأعمال السوء تنجز خروجاً عن أمره؟ فلو كنت هكذا، فاعلم أن حالك يشهد على ضعف إيمانك.

## شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مع اطلاعك على وجوب هذه الفريضة أمعن التـركيز فـي تـطابق حالات تطبيقها مع الشروط التالية:

١ - ان تتوثق من كون ما تراه من فعل حراماً بالنسبة لهذا الشخص، وتتيقن من حرمة هذا العمل لذلك الشخص.

فإن أبصرت شخصاً يتناول الطعام في شهر رمضان لابد أن تعلم أن الصوم واجب بالفعل عليه ثم تنهاه بعد ذلك عن فعلته. فربما يكون هذا الحرام حلالاً بالنسبة له. فلا تتخذ خطواتك على طريق النهي إلا بعد التوثق.

يقول الباري عز وجل:

﴿لا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.[1]

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٣٦.

كم من مرة حكمت بشأن أمور وتنبهت بعد ذلك لخلافها على أرض الواقع فانتابك الخجل. إذاً، لا تتدخل في أمر إلا بعد حصولك على ثقة كاملة بشأنه.

٢ - أن تحتمل ان يكون لكلامك أثر. وبالطبع من يحتمل ذلك في المرحلة الأولى ثم يتنبه بعد عدة مرات من المبادرة والتقييم إلى جدوى إقدامه، لا بد من الامتناع عن معاشرة مثل هذا الشخص بل النأي عنه حيث يقول عز وجل:

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا﴾.[١]

فكيف لك أن تحادث من ختم الله على قلبه وروحه، وأسدل الحجب على سمعه وبصره:

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.[٢]

٣ - أن تكون ممن يعمل بما ينصح به. فأي أثر يكون لقول من ينهى عن أمرٍ، وهو لا يرتدع عنه؟!

ترك دنيا به مردم آموزند خويشتن سيم و غله اندوزند[٣]

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٧.

٣ ـ البيت للشاعر سعدي الشيرازي، ومعناه:

-«يعلّمون الناس الزهد، وهم للذهب والغلات يكنزون».

وما جدوى أن يأمر الشخص الآخرين بالقيام بعمل لا يتواصل عليه هو نفسه إلا أن يجعل انحطاطه عبرة للآخرين كما يفعل المدمن المنكوب الذي يجعل مظهره عبرة للآخرين.

٤ - أن لا يحتمل وقوع ضرر جراء فعله أي أن لا يوقعن، بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، نفسه أو غيره في إثم تتجاوز مفاسده وفداحة أضراره ما في عمله من نفع وثواب.

٥ - أن لا تكون بشائر الندم ظاهرة على المذنب. فإن لاحت لك علامات التوبة والإنابة عند المذنب يكفي أن تدعمه في طريق التوبة مشجعاً. فقد حدثتك مسبقاً أن الله يحب عبده التائب أكثر من حبه لمن لم يرتكب الإثم من عباده.

وعلى أية حال، لا تتوقعن حيازة أي شأن وخطوة جراء أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر فيخيل إليك أن يلاقي كلامك التقبل فوراً فإن لم تلاق الترحاب تصاب بالخمول. فلم يظفر حتى الأنبياء والمرسلين بالتوفيق الكامل في ابلاغ رسالاتهم، فذلك يتوقف على رغبات مخاطبك ولمن يتهافت قلبه.

استمع إلى ما يقوله الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾.[1]

تجلد وأنت تسلك هذا الطريق واحترس من خمولك جراء تثاقل

---

١ ـ سورة الروم، الآيتان، ٥٢ و٥٣.

المتقاعسين فلا تصدنك كثرة المنحرفين عن الصراط المستقيم. كن هانئاً لتثبتك على طريق الحق وأن كنت وحيداً فرداً. فربك يخاطب أمثالك:

﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾.[1]

وأخيراً، أريد لك الالتفات إلى هذا الأمر الهام الحساس باطلاعك على مجموعة من الأحاديث، آتيك بأولها من نبينا محمد المصطفى ﷺ:

«الدال على الخير كفاعله».

وعنه ﷺ أيضاً ان رجلاً من خثعم سأله: أخبرني ما أفضل الأعمال، فقال: «الايمانٰ بالله. قال: ثم ماذا؟ قال: صلة الرحم. قال ثم ماذا؟ فقال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وآخر أذكره لك من الإمام الباقر عليه السلام حيث قال:

ان الله جعل للمعروف اهلاً من خلقه، حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه لطلاب المعروف الطلب إليهم ويسّر لهم قضاءه كما يسَّرَ الغيث للأرض المجدبة ليحييها ويحيي أهلها.

وأن الله جعل للمعروف أعداء من خلقه بغَّض إليهم المعروف وبغَّض فعاله. وحظر على طلاب المعروف التوجه إليهم وحظر عليهم قضاءه كما يحظر الغيث على الأرض المجدبة ليهلكها ويهلك أهلها. وما يعفو الله أكثر.

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٦٠.

## «خدمة خلق الله»

أعرف أنك اجتزت حتى الآن صحراء تكتظ بالأشواك. ربما تخرشت قدماك أو وخزت الأشواك ثوبك أو مزقت حذاءك. فهل تتوقع غير ذلك من الشوك؟!

وأعرف أنك لا بد أن مررت في طريقك ببستان انفرجت شفتاك عن ابتسامة لرؤية أغصانه وانتعشت عيناك لمشاهدة سيقان نرجسه واسكرتك ليلاً نفحات ورد ليله واطربك نهاراً عبير نسرينه. وأبهرك مظهر الشقيق على سفوح الجبال اليانعة الخضراء. فحدثني، إذاً، كيف هو تعاملك مع الشوك وكيف هو مع الورد؟ أَوَ تحب التمثل بالشوك أم بالورد؟

إنك مخيّر بين أمرين: لك أن تنثر الورود على أي قلب بيد حنانك، أو أن تلدغ الأرواح وتكدر صفوها بأنامل ظلمك وجورك. فحدثني أَوَ تحب أن تكون مصدراً للعسل أم للحنظل؟

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«قال الله عز وجل: الخلق عيالي، فأحبهم إلي ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم».

وإذا كنت راغباً أن تسمع شيئاً من ارشادات نبي الرحمة ﷺ فقد روى أنه ﷺ نصح من كان عنده ذات يوم أنهم ماداموا لا يقدرون على بذل العطاء للجميع فليلتقوهم بطلاقة وجه على الأقل.

فطلاقة وجه الإنسان هو أقل خير يمكنه أن يبذله لجميع من يعاشرهم، فهل له أن يبخل عليهم حتى بهذه؟!

وكيف لك أن تحمل لقب مسلم بينما لا تطلب لغيرك ما تطلبه لنفسك. إصغ إلى حديث عن رسول الله ﷺ:

«من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين، فليس بمسلم».

قد تقول: وماذا عساني أن أفعل؟ اجيبك: لا عليك إلا أن تبذل ما في وسعك وفي حدود امكانياتك، وأنت تضمر نوايا نقية.

أُقبّلن كل يد لها فعل في مداعبة الأحاسيس، وأباركن لكل كلام يمنح الهدوء، وكل عين تلقي نظرات تبث الحنان والرأفة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«أحب عباد الله إلى الله جل جلاله أنفعهم لعباده، وأقومهم بحقه، الذين يحبب إليهم المعروف وفعاله».

ومتى ما رأيت جنبة طبيعية أذبلتها أشعة الشمس فاعلم أنه يستحب لك سقيها لأنها مخلوق يسبح. ولمن تسبيحها؟ لحبيبك أنت! إنها مخلوق من مخلوقات خالقك. وقد تلقيت الأمر بهكذا فعل. وهلمّ

جرا لتعرف بماذا تحكم عليك مسؤوليتك إزاء أبناء نوعك، إخوانك وأخوتك في الدين.

أنظر إلى سلوك الأبرار كيف يغدقون بالحنان حتى على النمل. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن اعصي الله في نملة، اسلبها جُلب شعيرة، ما فعلته».

فكيف لنا أن نتحدث عن حب الله وفي سلوكنا -نعوذ بالله - مع عباده جفاء؟ وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله عن أحب الناس إليه، فقال: أنفعهم للناس.

ما سمعته عام يشمل الناس جميعاً. فلو كنت تواجه مؤمناً فمسؤوليتك عندئذ تزداد أصعافاً مضاعفة لأنه أخوك في الدين، فلو لم ترتض له ما ترتضيه لنفسك فلست مسلماً. إياك أن يكون بذي حاجة تقدر على تلبيتها فتمتنع من فعل الخير. وهل ترغب في معرفة ثواب تلبيتك حاجة المؤمن. استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام:

«مشي الرجل في حاجة أخيه المؤمن يُكتَب له عشر حسنات ويمحى عنه عشر سيئات ويرفع له عشر درجات».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«لئن أمشي في حاجة أخ لي مسلم أحب إليّ من أن أعتق ألف نسمة وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مُسرَّجة مُلجمة».

فإن مضيت في دربك فشاهدت مظاهر السرور والفرح، رأيت

الطرب والأعراس، وتلقيت البسمات، فانظر إلى قلبك فقد تشهد انعكاس ذلك السرور عليه حتى لو لم تكن بذي نفع من ابتهاج الآخرين.

وقد تمر بجثمان ميت، وترى لوعة قلب، وتسمع أنيناً، وتشاهد عيناً دامعة تدخل الحزن والهم إلى قلبك وإن كنت في مأمن مما لحق بهم من ضرر.

الآن أمعن التفكير: ماذا لو كنت أنت مسبب هذه الأفراح وخالق البسمة على شفاه أصحاب هذه النفوس المكتئبة، أو أنك مسحت الدمعة من وجنتين. ما مبلغ انعكاس هذه الفعال في قلبك وروحك؟! وأنت تعلم أن ربك رؤوف رحيم. ومهما ازددت رحمة وشفقة على غيرك تزداد قرباً لربك فقد قال نبيك ﷺ:

«رأس العقل بعد الايمان بالله التودد إلى الناس».

وقد حدد نبيك ﷺ أحد علامات الايمان بأنه حبك لغيرك ما تحب لنفسك. وأنت، بالطبع، لا ترتضي لنفسك السوء أبداً.

قال الله تعالى:

﴿ليأذن بحرب مني من آذى مؤمناً وأخافه﴾.

فلو ارتضيت مثقال ذرة من السوء لغيرك فلست بمؤمن.

يقول رسول الله ﷺ:

«واحبب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً».

وعن جابر الجُعفي قال: تَقَبَّضْتُ بين يدي أبي جعفر (الباقر عليه السلام)

فقلت: جعلت فداك، ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي، وصديقي، فقال: نعم يا جابر! ان الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الحنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه. فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن، حزنت هذه لأنها منها».

أنظر إلى ما يفعله هذا المشهد بقلب المؤمن وهو لا يراه بأم عينيه! فكيف للمؤمن أن يرى أخاه المؤمن حزيناً فلا يكتئب لحزنه؟ فلو كان هكذا فإنه لبعيد عن الايمان بفراسخ. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد. إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة، وان روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال أشعة الشمس بها».

ولو كنت تريد مني الاختصار وأنا أبلغك ما لأخيك في الدين من حق في ذمتك، أعود إلى الإمام الصادق عليه السلام لأنقل لك ما رواه أحد الرواة عنه حيث قال: قلت له (أي للإمام الصادق عليه السلام): ما حق المسلم على المسلم؟ قال له سبع حقوق واجبات ما منهنّ حق الا وهو واجب عليه إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب قلت له جعلت فداك وما هي قال: يا معلى انّي عليك شفيق أخاف أن تضيّع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل قال قلت له: لا قوة الا بالله قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحبّ لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه. والحق السابع أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادر مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك.[١]

تُكرر القول بأن العبء ثقيل حمله، والواجب لفي منتهى الصعوبة أداؤه، وأقول الطريق في غاية الروعة والهدف في أعالي السمو والرفعة.

والمؤمن من أسماء الله فما دمت عرفت معنى المؤمن فاعلم، أنك لو أدخلت السرور إلى قلبه فإنك أدخلت السرور الى قلب الائمة عليهم السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله، وأرضيت الله عنك بذلك، وضمنت لنفسك السعادة. تمهل آتيك ببشرى أخرى في خصوص إدخال السرور إلى قلب المؤمن.

أنقل لك البشرى من كتاب الكافي عن لسان الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يُقدِمه امامه، كلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة، قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل، حتى يقف بين يدي

١ ـ منية المريد، الشهيد الثاني، ص٢٣٢ و٢٣٣.

الله عز وجل، فيحاسبه حساباً يسيراً ويأمر بـه إلى الجـنة، والمـثال أمامه. فيقول له المؤمن: يرحمك الله، نِعم الخارج، خرجت معي مـن قبري ومازلت تبشرني بالسرور والكرامة من الـلـه حـتى رأيت ذلك. فمن أنت؟

فيقول: أنا السرور الذي كنت أدخلت على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله عز وجل لأبشرك».

* * *

وأوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام ان العبد من عـبادي ليأتـيني بالحسنة فأبيحه جنتي.

فقال داود عليه السلام: يا رب وما تلك الحسنة؟

قال: يدخل على عبدي المؤمن سروراً ولو بتمرة.

قال داود عليه السلام: يا رب حق لمن عرفك ان لا يقطع رجاءه منك».[١]

فيا عزيز النفس! أدعو لك بسلامة روحك. قلوب المؤمنين تربطها بالأبرار والصديقين والأنبياء أعمدة من النور، وهـم أصـحاب أرواح عظّم الحبيب شأنها. ولك أن تخطو على درب خدمة المؤمنين وإدخال السرور إلى قلوبهم، لتتصل بهذا النور، فترى ما يتولد عن انعكاس هذا النور من ضياء في قلبك منذ نفس اللحظة.

١ ـ أصول الكافي، باب إدخال السرور على المؤمنين.

## «الحلم وكظم الغيظ»

لا مفر لك في سياق هذا التحلي أن تقتبس زينة من مولاك لتكون خليقاً بلقائه. فكلما تمثلت بصفاته وتنكرت لمخالفته ازددت قرباً منه. أيها العزيز! هذا الطريق لا تسلكه في الخارج بل في باطنك. فبدايـته فيك ونهايته فيك. والمسار تحدده أنت والسالك هو أنت فكلما ازددت قرباً من ربك تزداد صفاته تجلياً عندك والعكس صحيح.

ألم تقرأ أن الحق تعالى لجد حليم ونحن لأصلف عصاة متمردين. إلا:

﴿انه كان حليماً غفوراً﴾.[1]

فبغض النظر عن العصيان، هنالك الأفكار الخاطئة التـي تـتحامل على القلب فتغرقه في ظلمات حـالكة ويـنقضي العـمر بـمثل هـذه المتاهات الخادعة. ومع هذا:

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٤٤.

﴿والله يعلم ما في قلوبكم، وكان الله عليماً حليماً﴾.[١]

سماؤه شهدت منا كل هذه المعاصي وأرضه اكتظت بكل هذا الظلم. فلولا غفرانه وحلمه لما بقي أحد حياً على وجه الأرض.

﴿ان الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.[٢]

إنه مالك عباده وخالقهم وقيّومهم ورازقهم، وله معهم هذا التعامل، فكيف بنا أنا وأنت لنتحامل عليهم ونتغنج بأنفسنا. نتجاهل معايبنا ونلصق مئات العيوب بغيرنا وكأننا نقبض على سيوف استعداداً للانتقام! فإلى متى نكون كالنار، حارقة ملتهبة؟ كن حليماً كالتراب فكلما تزداد نخراً فيه يزيدك رزقاً منه.

يخاطب رسول الله ﷺ المسلمين بقوله:

«ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟

العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك».

تمثل لتتعرف على ثمرة هذا العمل من كلام إمامك جعفر الصادق عليه السلام حيث يقول:

«إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي مناد. أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عنق من

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٥١.

٢ ـ سورة فاطر، الآية ٤١.

الناس فتلقّاهم الملائكة، فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا.

قال: فيقال لهم:

صدقتم، ادخلوا الجنة».

* * *

الحرم حرم الحبيب، لا سبيل لأحد إليه إلا إذا اصطبغ بصبغته: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾.[١]

* * *

يروي معتب وهو أحد أصحاب الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قال: كان ابو الحسن موسى عليه السلام في حائط (بستان نخيل) له يَصْرِم فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط فاتيته وأخذته وذهبت به إليه فقلت له: جعلت فداك. إني وجدت هذا وهذه الكارة. فقال للغلام: يا فلان! قال: لبيك. قال: أتجوع؟ قال: لا يا سيدي. قال: فتعرى؟ قال: لا يا سيدي، قال: فلأي شيء أخذت هذه؟ قال: اشتهيت ذلك. قال: إذهب فهي لك. وقال: خلوا عنه.

كان أهل مكة لا يطيقون وجود رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المدينة، فيرمونه بالحجارة وبما قبح من كلام بل كانوا لا يبيعونه وأصحابه من متاعهم. فلما زاروه بعد فتح مكة استقبلهم منشرحاً وصفح عنهم

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٣٨.

جميعاً. فالشر خليق بالأشرار. فكيف بك وقد زينت نفسك بحلية الكمال؟! وهل تريد السقوط من سلم ارتقيته بكل هذه المشقة؟!

الغضب نار، فإلى متى تصب هذه النار في نفسك؟ فإنه كالنار تلتهم الديار بدءاً بوسائل الدار ثم تصل إلى دور الأغيار أو قد لا تصل. فنصف الذين قضوا نحبهم إثر جلطة قلبية كان ذلك نتيجة الغضب. هذا ضرره الأول اما من أضراره الأخرى فإنه عجزك عن التحكم باللسان ومنعه من اللغو اثناء شعورك بالغضب. وقد تنطق بما يأتي عليك بالندم لسنين وسنين.

وثالث مضراته هو نأي العقل عن الحكم بالعدل وبطلان هذا الميزان في تحديد مسار الإنسان.

وهاك حكاية لجارية لعلي بن الحسين عليه السلام تسكب الماء عليه وهو يتوضأ، فسقط الابريق من يد الجارية على وجهه، فشجه. فرفع علي بن الحسين عليه السلام رأسه إليها، فقالت الجارية:ان الله عز وجل يقول: والكاظمين الغيظ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: والعافين عن الناس. قال لها: قد عفا الله عنك. قالت: والله يحب المحسنين. قال: إذهبي، فأنت حرة.

هكذا يفعل القرآن في أبدان الأبرار وأرواحهم.

فيا أيها العزيز!

أنت الهدف عند الحبيب الأعلى. وأنت ورد روضة خلقه وريحانه. فإلى متى تنمي الأشواك في بيداء قلبك؟ وجناتك المتوردة أبهرت الملائكة، فلا توردنَّ وجهك بنار الغضب. لهيب الحب المتقد في

وجودك يـدفىء المـلكوت ولكـن نـار الغـضب يسـد عـليك درب الملكوت.

أنت كقصب السكر لا تترشح عنك المرارة. وأنت در ثمين، وعلى رؤوس الكائنات تاج حصين. لست للأملاح مرتع لتـصبح للـملوحة مصدر.

فكلما تستولي على قلبك نقمة الغضب تأنَّ لتحولها نعمة.

دعني أسرد عليك مشهداً آخر.

ذات يوم بعث الإمام الصادق غلاماً له في حـاجة فأبـطأ فـخرج يتقصاه، فوجده نائماً في ظل بالزقاق. ولما كان الجـو حـاراً جـلس بالقرب منه يروِّحه حتى نهض من نومه. فلما تنبه قال له أنه لا يحسن به النوم بالليل والنهار معاً، فلينم ليلاً ويعمل عنده نهاراً.

وقال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالعفـو، فإن العفو لا يزيد العبـد إلا عـزّاً فـتعافوا يُـعزكم الله».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه أكد أن الحلم يدور على خمسة أوجه:

- أن يكون عزيزاً فيذل،
- أو يكون صادقاً فيُتهم،
- أو يدعو إلى الحق فيستخف به،
- أو أن يؤذى بلا جرم،
- أو أن يطالب بالحق ويخالفوه فيه.

فهذه الحالات الخمس حالات يتوجب عليك أن تـتنبه فـيها إلى نفسك متحذراً، لتصون نفسك من كل هفوة قد تسقطك فـي أحـضان المعصية متهاوياً.

## «الحشمة وغض البصر»

ألمح الآن في روحك نقاء وصفاء. عسى أن تكون على استعداد لنخوض رحلة التجلي لعل الحبيب يزيح ستاره وينتهي بذلك عهد الفراق.

فلو يغدو شراب المعرفة نقياً يملأ الرياض ريحاناً ووردأ.

ففي مثل هذه الحال، حيث تظهر مئات النعم والمواهب، يلوح لك خطر يتوعدك وهو أن يثير الجمال في هذه المرحلة ثورة وهياجاً في القلب فيعكر صفوه، فربما تتهافت على ورد فيندس قدمك في الأوحال لأجله، ورب مستهوٍ صدك عن الهدف حبه! لا تستصغرن هذا الخطر الفادح. فتعاملك في هذه الديار مع الحبيب لا مع الأغيار. وقد يلقيك زيغ البصر في متاهات الخطر وإلى حيث تئِنٌّ بعدها متأوهاً من فعل النظر.

أيها العزيز! ربما تلوعت عمراً من أثر سوء أتى على روحك وقلبك من نظرة واحدة.

أنت ملتزم بصلاة، بسر، بذكر، بفكر وما أن تعقد العزم للإدلاء فإذا بحبيب غير مدعو يَردُ قلبك على حين غرة دون أن يطرق الباب فيحول بينك وبين أعمالك ومسؤولياتك.

أوثان نفسك تسحر عينيك لو تتلقى منهما انفتاحاً، فتلجهما دون استئذان. ولِتعلمن مآل هذا الانفتاح وتتجلى لك أضراره تبصَّر، واستمع إلى الامام الباقر عليه السلام حيث يقول:

«كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشيت الله، وعين غضّت عن محارم الله».

أيها العزيز!

جفناك ليستا مصراعي بوابة مضيف تتركهما مفتوحتين على الدوام دون مبالاة لوفود محرم او غير محرم. إنهما بابا كنز قلبك، والقلب حرم ربك. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«القلب حرم الله فلا يسكن في حرم الله إلا الله».

فأنّى لقلب احتوى الشيطان أن يرد إليه الرحمن؟!

الملكوت في انتظار نظراتك فما لا ترفعها عن الملك لا تقدر على توجيهها إلى الملكوت؟

فلنعد إلى أحاديث الإمام الباقر (ع) ونقرأ معاً:

«ما عُبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج».

ان الله أمر من جهة رسوله أن:

﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾.[1]

وأن يأمر النساء:

﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾.[2]

معاذ الله أن تتجاهل هذا الأمر الإلهي فتخزيك في ساحة الإله نفس هاتين العينين في غد قيامتك:

﴿حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾.[3]

أيها العزيز!

إن الله غيور ولا ترتضي غيرته وجود الأغيار إلى جانبه ولا يَصدُق الحب إلا لحبيب واحد فقط. فأنت في ارتقائك تتجه صوبه فلا تنشغلن بالغير في هذا المعراج. فطريق معراج محمدﷺ اكتظ بالمغريات ولكثر ما اعترضت دربه المستهويات، ولكن فارس ساحة التوحيد لم ينصرف عن طلب الأحد حتى قال في شأنه باريه:

﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾.[4]

واسمع ما يقوله نبينا محمد المصطفى ﷺ:

«النظر سهم مسموم من سهام أبليس».

---

١ ـ سورة النور، الآية ٣٠.

٢ ـ سورة النور، الآية ٣١.

٣ ـ سورة فصلت، الآية ٢٠.

٤ ـ سورة النجم، الآية ١٧.

وتعلم أن لجراح السهام العادية علاج ولكن السهم المسموم قـاتل او يمضي أثره في الجسم لسنين وسنين. إنك لتعرف أُناساً قضوا العمر في تيه جراء نظرة تولهوا وجنّوا بها وربما آل أمرهم إلى الانتحار.

ولكي لا تمرن على الموضوع مر الكرام، إصغ إلى الكلام! فأنت إن اختليت بمال يتيم لا تلام بادئاً إلا إذا نويت سوءاً. ولو انفردت بنفسك في حانة للشراب قضيت فيها الليل حـتى الصـباح فـلا بأس مـا لا ترتكب خطيئة، وقد تقضي الساعات من وقتك تنظر الى كتب الضلال. ولكـن لا يـحق لك أن تـختلي بـامرأة مـن المـحارم ولو كـان ذلك لاستفسار علمي أو إيضاح لقضية فقهية شرعية. فواضع هذه الشريعة يعرف أن للجواذب الجنسية من التأثـير مـا لا يكـون لأيـة جـاذبية أخرى.

قال رسول الله ﷺ:

«لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان».

قسماً بنفسك الطيبة إنك إن اغمضت عينيك عن الحرام لا تفتحهما إلا وأنت تلاقي وجه الله. وكما تنبهت فإن قوة هـذه الجـاذبية كـلما ازدادت لابد أن تواجه بصلابة أكبر مما تبذل في أي مـن خـطوات السلوك الأخرى.

استمع معي إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«النظرة سهم مسموم من سهام أبليس. فمن تركها خوفاً مـن اللـه أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه».

كأن مهمة العين الاسترسال والقلب الانـجذاب والقـدم الانـزلاق والفطرة التقصي. ماذا عساني أن أصنع؟ أخبرني ماذا أفـعل؟ فـديتك نفسي ماذا أقول؟ اصغ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ حيث يقول: «ما أعتصم أحد بمثل ما اعتصم بغض البصر، فان البصر لا يغض عن محارم الله إلا وقد سبق إلى قلبه مشاهدة العظمة والجلال».

وقد سئل الإمام علي‏ؑ: بما يستعان على غمض البـصر؟ فـقال: بالخمود تحت سلطان المطلع على سترك.

وخاتم الأنبياء والمرسلين سدد لنا النصح أن نـغمض العـين عـن الحرام لنرى بهما العجائب.

ويروى ان عبد الله بن مسعود قال لرجل كان قدر زار امرأة مريضة من المحارم فنظر إليها إنه لو عمي لكان أفضل له من هذه العيادة.

فهذه النظرات هي مبعث ابتلاء نفوس وقلوب الشباب بنار مـئات الرغبات المكبوتة يومياً. وما أدراك ما فعله لهبها بهم؟

ولكي لا تضرم هذه النيران في نفسك اعتصم بديار الحـق، فـفيها تأمن مما يتربص بالقلب المتيقظ في كل مـن الخـطوات مـن مـئات المتاهات. وله في التبصر ألف طريق للنجاة.

إذاً، إصغ إلى نبينا محمد بن عبد الله ﷺ حيث يقول:

«النساء حبائل الشيطان».

أيها العزيز! تمهل لتطلع شمس التوحيد في أفق قلبك فستهديك الى مكنونات عالم الوجود جميعها. ولا يكـون للـجاذبيات الواهـية إلى

خداع قلبك من سبيل. وبذلك تستوعب اسمه «الشهيد» فيما تراه من وجوده المتواصل مع جميع الكائنات وتفهم معنى «هو على كل شيء شهيد».

ربما يجتمع المؤمنون إلى بعض فيما يرونه صلة رحم، فيجلس المحارم وغير المحارم معاً فيقضون اوقاتاً في تبادل الحديث والضحك وتناول الطعام. ويحسبون ذلك من حسن الأعمال. وقد أخبرتك قبل هذا أن البقاء في مثل هذه المجالس معصية إلا أذا كان بالإمكان تغيير وضع المجلس، ولما كانت هذه الحالة استثنائية لا سبيل أمامك إلا الفرار. ولتعلمن أن أغلب المتقين غيّبوا عن الأذهان بتهمة العزلة والانزواء والتصوف.

أيها العزيز! عندما يخيم الحياء والحشمة على ربوع القلب تتبعه العين والأذن واليد والساق وسائر أعضاء الجسم.

إلهي! ألهمنا نفوساً نستوعب بها كنه وجودك، وهبنا قلوباً تعزف عن الغير في حضرة جلالك، وأبصاراً لا ترى غيرك، وآذاناً لا تسمع غير خطابك وأيد لا تتحرك إلا بما تقتضيه إرادتك، وأقداماً لا تخطو إلا في سبيلك.

أودع قلبك لما يقوله لك الإمام الصادق‌عليه السلام:

«أما الحياء فيتشعب منه اللين، والرأفة، والمراقبة لله في السر والعلانية، والسلامة، واجتناب الشر، والبشاشة، والسماحة، والظفر، وحسن الثناء على المرء في الناس. فهذا ما أصاب العاقل بالحياء. فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته».

## «صلة الرحم»

انشغالك بالله لا يمنعك عن الخلق. أحسن السماع إليَّ، ما دمت متولهاً به فأنت في كل ما تختاره لأجله وانصياعاً لأوامره وفي سبيله إنما تعلن اختيارك له: وأنه لما يقول: «إن تنصروا الله ينصركم» لا يعني ذلك أن الله الغني عن عباده لبذي حاجة مادية لنصرتنا، لا، بل هي نصرة دينه وخلقه. فإن رغبت في نصرته، كن لخلقه ناصراً.

وأنت لا تقدر على الإطلاع على أحوال الناس كلهم. ولكنك مكلف أن تتقصى أوضاع أقربائك وجيرانك وتستفسر عنهم لعلهم بحاجة إلى نصرتك، وتكون قادراً على تلبية حاجتهم ولا تبخل بها عليهم. وهذا ما يتيسر لك بمعاشرتهم والسؤال عن أوضاعهم لا أن تدير ظهرك لهم.

يقول جميل بن دارج أنه لما سأل الإمام عن معنى الآية:

﴿.. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾.[1]

قال: هي أرحام الناس، إن الله عز وجل أمر بصلتهم وعظّمها. ألا ترى

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١.

أنه جعلها منه.

إننا مسؤولون إزاء الناس، أن نتعاطف معهم ونؤازرهم ونتعاضد معهم جميعاً. وبالطبع بما يكون في وسعنا وفي دائرة معلوماتنا. ولما كان الأمر كذلك، فكّر ما مبلغ مسؤولياتنا إزاء عوائلنا الكبرى، لا سيما أولئك الذين نرتبط بهم بأصولنا ودمائنا وأنسالنا، فأنت هم أنفسهم، إن أمعنت التفكير.

ومن مردودات صلة الرحم طول العمر لو كانت بك رغبة في البقاء طويلاً على قيد الحياة.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا:

«يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة ويفعل الله ما يشاء».

وعن الإمام أبي جعفر الباقر أنه قال:

«صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وترفع البلوى وتُيسّر الحساب وتنسيء في الأجل».

فالإنسان مخلوق اجتماعي يتعذر عليه العيش بهناء وحيداً. فهو في طلب المعرفة وفي معترك العمل وكسب الرزق واعداد المسكن يكون بحاجة إلى الآخرين. وقد خصت التعاليم الإسلامية الاجتماع بقيمة فائقة حتى جعلت لصلاة الجماعة كل هذا الأجر والثواب. كما أن الأمل باستجابة الدعاء، بحسب هذه التعاليم، يقوى إن وجهتها جماعة ما. وللحج وهي عبادة اجتماعية جماعية ماله من قدر عظيم.

فديننا ليس دين وحدانية وانفراد. فحدثني هل يمكن الانقطاع عـمن ينتمي إلى عرقنا وأصلنا في ظل هذا الدين؟ استمع إلى نـبيك ﷺ يقول:

«أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجـال وأرحام النساء إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم وإن كانت مـنه عـلى مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين».

وإلى الإمام الصادق عليه السلام في قوله:

«صل رحمك ولو بشربة من ماء وأفضل ما توصل به الرحم كـف الأذى عنها. وصلة الرحم منسأة في الأجل، محببة في الأهل».

ذات يوم جاء الإمام علي عليه السلام، وهو بالربذة يريد البصرة، إعرابـي فشكا إليه صدّ قومه عن نصرته، فقصدهم عليه السلام وسألهـم عـن السـبب فشكوه كما شكاهم، فقال: «... وصل امرؤ، عشيرته فإنهم اولى بـبره وذات يده، ووصلت العشيرة أخاها إن عثر به دهر وادبرت عنه دنيا، فإن المتواصلين المـتباذلين مأجـورون وإن المـتقاطعين المـتدابـرين موزورون».

معمعات الحياة كـثيرة، فأنت إن آزرت ضـعيفاً فـي وقت قـوتك، يرفعك الأقوياء غداً في يوم ضعفك.

ألم تسمع قوله تعالى يصف الأبرار في الآية:

﴿الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾.[١]

---

١ ـ سورة الرعد،الآية ٢١.

وهذه الصلة هي صلة القرابة. فإن كان بين أقربائك محتاجاً يكون أولى بالصدقة فبها تكون قد دفعت صدقة ووصلت قريباً وأوليته محبة. فقد قال المصطفى ﷺ:

«الصدقة على القرابة صدقة وصلة».

ويكون لك ذلك تارة بالسلام وتارة بالكلام، وتارة بإهداء رداء وتارة بإيعاز نداء، تارة بزيارة وتارة برسالة، تارة بملاطفة عواطف وتارة بتهدئة خواطر، تارة بإطعام وتارة بابتسام، تارة بإيجاد رغبة وتارة بتوجيه دعوة، تارة بأداء عمل وتارة بحمل ثقل، فعلامَ تقدر؟ لا يهم، إبذل ما في وسعك، أخطُ خطاك لأجل أقربائك وأنت تصغي لكلام خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

«بُلوا أرحامكم ولو بالسلام».

و«تهادوا تحابوا».

وفي حديث آخر له أكد ﷺ أنه ليست هنالك من عبادة يصل أجرها إلى العبد أسرع من صلة الرحم.

فيا أيها العزيز! إنه لبمقدورك أن تقيم في روحك للأزهار روضة بما تبذله من أنس وهبة، أو أن تجعلها للشوك مرتعاً، إذا ما جعلتها للغضب والعداء مقراً وقراراً.

فهذا الحب والود ليداعبن قبل كل شيء روحك أنت ويضفي جمالاً وحلاوة على حياتك. أما الحقد والعداء والمكائد فإنها تضرم النيران في قلبك أنت أولاً وتعكر صفو حياتك وتذيقك المرارة.

أوَ لا ترغب أن يُدق بابك ويكون لك في السراء والضراء من يشاطرك، ساهم في أحزان رفاقك وأتراحهم. حقاً إنه بالإمكان أن يتحول العالم جنة بالتحابب والتوادد، أليس كذلك؟!

هنا أذكر ملاحظتين:

إحداهما: أن أفضل الرحم يتعلق بالأبوين. ولما كنت قد حدثتك في هذا الخصوص عند الكلام عن التزكي لم أحبذ التكرار. فلا بد لك أن تبذل ما بمقدورك لكسب رضاهما.

والأخرى: إياك أن تلقيك صلة الأرحام في أحضان المعاصي.

إياك أن تصل الأرحام بتوجيه الدعوات أو تقبلها أو التجمع إلى بعض بإقامة مجالس المعاصي خلال تلك الاجتماعات. حدثتك عن مفاسد هذه المجالس في باب التزكي. ولهذا أصرف النظر عن إعادة الكلام فيها. نعوذ بالله من شر الشيطان.

## «حسن الخلق والمماشاة»

أول ما يظهر من سماتك في المجتمع هي أخلاقك التي تعرف بها. فالأخلاق تمثل، في الواقع، مظهر ملكاتك النفسية الباطنية. من هنا، لا يكون لأخلاقك صلاح ما لم تصلح وضع باطنك. وأهمية الأخلاق تبلغ حداً جعل نبيك الكريم ﷺ يحدد هدف بعثته بأنه إجلاء مظهر تام للأخلاق الإنسانية وتهذيبها، حيث قال:

«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وكان، حقاً خير قدوة وأسوة للأخلاق الإنسانية، يحتذي به بنو الإنسان في كل عمل ويقبلون عليه حتى قال الله سبحانه وتعالى في شأنه:

﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾.[1]

كان ﷺ منذ نعومة أظافره يواظب على تصفيف شعره ورعاية النظافة على الدوام خلافاً لغيره من أطفال عهده بما كانوا يتسمون به

---

١ ـ سورة القلم، الآية ٤.

آنذاك من شعور شعثة وأبدان متسخة.

عيناه النفاذتان لم تكونا كعيون سائر الأطفال تلاحق الأطعمة بل اعتاد على تناول طعامه مكتفياً بالقليل منه. عُرف بوقاره. لم يشكُ في صغره ولا كبره الجوع أو العطش قط.

ذكر أبو طالب أنه ذات يوم دعاه لينزع رداءه ويدخل إلى فراشه فرآه كارهاً لذلك. ولما سأله عن السبب طلب ﷺ من عمه أن يدير وجهه ليقدر هو أن ينزع رداءه فانبهر عمه لكلامه هذا وهو في مثل عـمره. وكان يؤكد دوماً أنه ما سمعه يكذب قط، وقلما لاحظ منه رغبة في اللعب والألعاب بل يفضل الانفراد في أكثر الأوقات.

شوهد في السابعة من عمره يصب التراب في ردائه ويعين عبد الله بن جدعان في بناء الدار. فلم يقض يوماً عاطلاً، وكان يستعيذ بـالله من البطالة والكسل، وكان كثير الرغبة في الانزواء والتفكير والتجول في ربوع الطبيعة، يتطلع ليلاً إلى السماء قائلاً أنه لا يشبع من النظر إلى هذه السماء. ذاع صيت صدقه ومشاعر وده حتى سمي محمد الأمين. لم يُبتلَ في شبابه كغيره من أترابه بميول عهد الشباب وتمنياته.

كان عادلاً ورؤوفاً في تعامله مع زوجاته حـيث يـتصرف مـعهن جميعاً بمنتهى الرفق والمجاراة، ويواجه بالحلم مـا يـبدو مـنهن مـن فظاظة أحياناً.

كان يشفق على أبنائه ويصف الأبناء بأنهم أكبادنا.

حتى عند التقاء الأطفال يستبقهم بإلقاء التحية ويقبّلهم ويمسح بيده على رؤوسهم ووجوههم. لم يحرم الغلمان والخدم من رأفته. ويـقول

كلنا سواسية. ويؤكد أنه لا فرق بين عبد ومولى إلا بـالتقوى ويـمنع الآخرين من التفوه بلفظة «عبدي»، لأننا جميعاً عباد الله. ولم يكتف باعتاق غلام أهدته إياه زوجته خديجة (رض) بل تبناه وزوّجه مآلاً زينب أبنة عمته محطماً بذلك عادات فرضتها التقاليد الطبقية الهوجاء المتبعة منذ عهد الجاهلية. يغسل شعر رأسه بالسدر ويمشطه ثم يرطّبه بزيت البنفسج ويعطره بالمسك والعنبر. فأينما يمر بزقاق وحيّ تنتشر رائحته في المكان حتى فترة طويلة. يستاك قبل كـل فـريضة صـلاة ويغسل يديه وفمه قبل تناول طعامه وبعده. ويحمل معه دوماً في كل رحلة مشطاً من العاج ومقراضاً ومرآة ومسواكاً. داره تخلو من مظاهر الترف والأبهة ولكنها نظيفة دوماً. وهو يؤكد على إخراج النفايات من الدور قبل حلول ظلام الليل.

كانت نظافة جسمه تحاذي طهارة روحه. كان طليق الوجه، بشوشاً بين الناس وحزيناً مهموماً عند انفراده. لا ينظر في الوجوه قـط بـل يركز عينيه النافذتين على الأرض في أغلب الأوقات. يجلس عـلى ركبتيه ولا يمد رجليه أمام أحد أبداً.

كان ﷺ إذا دخل مجلساً قعد في أدنى المجلس حـين يـدخل. وقال ﷺ إذا أتى أحدكم مجلساً فليجلس حيث ما انتهى مـجلسه. وكان يفضل الجلوس في حلقات، فلا أعلى فيها ولا أدنى. ولا يأذن للآخرين بالنهوض أمامه احتراماً له.

كان لا يقطع كلام مخاطبه قط وكلٌ يتصور أنه أعزّ شخص عـند رسول الله ﷺ، يتكلم بإيجاز وبهدوء وتوؤد، ويقتصر على ما هـو

ضروري من كلام ولم يتفوه بسباب قط ويغض الطرف عن اساءة الآخرين إليه حتى أنه زار يهودياً مَرِض وكان يصب الرماد على رأسه ﷺ قبل ذلك. لا يعرف قلبه للحقد معنى و لا يفكر في الانتقام. كانت روحه القوية التي تواصل تحليقها في آفاق الملكوت، تفضل العفو والصفح على الانتقام دوماً. ولما تعرض جثمان عمه حمزة لمثل ذلك التطاول من قبل هند زوجة أبي السفيان، صفح عنها عندما سنحت له فرصة الانتقام منها. وبعد فتح خيبر ترك جماعة من اليهود وشأنهم، وكانوا قد دسّوا السم في طعام بعثوه إليه فانكشفت له مؤامرتهم. ولكنه كان في غاية الجدية فيما يخص حكم الشريعة فلا يصرف النظر عن تنفيذ أحكام الدين الإسلامي في حق أي كان. وهو يقسم بالله أنه لن يتوانى أو يتقاعس عن تنفيذ العدالة في حق أي كان، ولو كان المجرم من أقرب أقربائه.

ولم يكن ليستثني نفسه في أي من الحالات.

لم يحضر مجالس اللهو واللعب قط حتى قبل البعثة كأن روحه المتسامية، التي ضاقت الأرض بها في ظل تفكيره والنظرة التوحيدية التي كان يلتزمها، كانت تأبى الاتصال بغير الأبرار مما يضطر إلى الانعزال أحياناً فيتوجه إلى الصحراء وحيداً ويقضي ليال عديدة في أحضان غار حراء متعبداً.

كان يقضي وطراً من الليل في الصلاة والعبادة والدعاء. وحبه لله كان يحول بينه وبين الاعياء إثر عبادته المتواصلة. وإضافة إلى شهر رمضان المبارك كان يصوم بين يوم وآخر من باقي أيام السنة أيضاً.

كانت قدماه الشريفتان تنتفخان لكثرة قيامه مصلياً وركوعه طويلاً، ولكنه لا يطيل الركوع والسجود عند أدائه صلاة الجماعة رعاية لأوضاع الآخرين. لا يستحب رفع الصوت أثناء الذكر والدعاء. قال ﷺ لجماعة تعالت أصواتها مهللين مكبرين بان ربهم ما هو بالأصم ولا بالبعيد. انه قائم في كل مكان، وانه سميع قريب.

كان مستغنياً عما لا يكون من ضرورات العيش، فيجلس على الأرض مفترشاً قطعة من حصير، ويتوسد بوسادة جلدية محشوة بألياف النخيل. أغلب قوته خبز الشعير والتمر، ولم يشبع قط لثلاثة أيام متتالية من خبز القمح. يفطر يوم صيامه بعدة حبّات من التمر أو بالماء. يجلس على مركبته دون سراج ولجام، ويرقع رداءه وخفّيه بيديه الشريفتين وهكذا أيضاً يحلب الحليب ويطحن القمح.

ذات يوم أُلقي على رأسه وهو يسجد حثالات ومحتويات كرش ناقة، فقامت ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام بإزالتها عن رأسه وكتفيه. ومرة أخرى شدّوا نحره بمنديل أثناء صلاته لعله يقطعها فما فعل. كان يمر بجميع هذه الأفعال ببرود. ذات يوم سأله أنصاره المتعرضون للتعذيب أما حان الوقت ليسأل لهم الفرج من عند الله، فقال:

«قد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون ويُنشرون بالمناشير وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه...، فاسألوا ربكم درجاتهم واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم».

كان دائم المشورة مع الآخرين بشأن أعماله.. ودعوته متواصلة للجميع أن يسمحوا لصاحب الحق ليدلي بما لديه من كلام.

أيها العزيز! لكي لا تتصور أنني نأيت عن مسار الحديث، أقول أن الناس ينعتون «حَسِن التعامل والمعاشرة مع الآخرين» بحُسن الخلق، أي أنه يحسن الجلوس والكلام، يحسن الضحك والمرح و.... والمعلم يصف تلميذه بحسن الخلق عندما يراه هادئاً صامتاً فيحصة الدرس. والزوجات أيضاً يحسبن أزواجهن على درجة عالية من حسن الخلق متى ما انصاعوا لأوامرهن دون نقاش. ولما كنت أخشى أن تتساءل: وما هي الأخلاق؟ أردت أن أقدم لك أسوة. أما أسوة الأخلاق الصامتة فإنه القرآن فهو كتاب بناء الإنسان، والأسوة الناطقة هو نبينا محمد ﷺ.استمع إلى القرآن:

﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾.[1]

فأفضل كتاب للأخلاق تحصل عليه باستعراض دقائق حياته. ولابد لكل سالك أن يجعله أسوة له في طريقه إلى كشف الحقائق، فأنت مسؤول إزاء نفسك ومسؤول إزاء ربك ومسؤول إزاء الناس. فإن وفقت في أداء هذه المسؤوليات الثلاث، فإنك لعلى الصراط المستقيم ولعلى خلق حسن. فانظر، إذاً ماذا كان من نبيك مع نفسه ومع ربه ومع الناس. إحذو حذوه. وقيّم نفسك بهذا الميزان لتتطبع أنت الآخر بحسن الخلق والوقار. وإصغ إليه ﷺ مع حديث آخر:

«ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق».

واستمع إلى الإمام محمد الباقر عليه السلام يقول:

---

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٢١.

«إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

فلنعد إلى الإمام الصادق عليه السلام ونأخذ عنه حديثاً آخر:

«إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم».

ولما كان الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.[1] فإنه لا يحق لك أن تتعامل مع الآخرين بعنف، وأنت تدعوهم إلى الإسلام أو أن تجادلهم بأسلوب مستهجن، فتصد بذلك الناس عن هذا الدين وهو رحمة للعالمين.

وفي آية أخرى أمره عز وجل قائلاً:

﴿قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾.[2]

وأعلم أيها العزيز! أن الناس خلق الله وهو يحب مخلوقاته: ﴿إن ربي غفور رحيم﴾. إنه يعدهم أن يصفح عن هفواتهم ويلوح لهم بأنه رؤوف بهم، فمن نحن لنعنف خلقه ونسيء الخطاب معهم أو نجيز الظلم والجور في حقهم؟! وقد قال نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الخلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١٢٥.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية ٥٣.

«إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم».

إنك تولي أعلى درجة من الاحترام لأبويك لأنهما صاحبا أكبر حق في ذمتك، وقد وصّاك الله بهما كثيراً. ولكن مع ذلك فإنه مراراً يذكّرك:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً، وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.[١]

ثم أعاد نفس هذه الملاحظة في الآية (١٥) من سورة لقمان عسى أن لا يجرك حسن تعاملك معهم ومع الآخرين إلى ارتكاب الآثام. وكل إثم كما أخبرتك ينطوي، لا محالة، في باطنه، على شرك خفي. وهذه هي حدود حسن خلقك مع الناس خلال معاشرتك لهم، وكلامك وتصرفاتك معهم، وفي تعاملاتك المتبادلة، وتبادلك الزيارات معهم، وفي جميع أمورك. أي أن لا يلقيك حسن الخلق في وادي الذنب ويصدك عن الله سبحانه وتعالى. بهذا الميزان تعرف أنه قد يسميك الناس سيىء الخلق وأنت في قمة الأخلاق حيث لا يكون لك مفر من أن تتجنب الكثير من المجالس. ولكن بأي أسلوب؟

هاك جوابك من ربك:

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾.[٢]

فاعلم إذاً، أن هذه الأخلاق ليست هي الأخلاق التي يرتضيها ناسُك بل أخلاق يرتضيها ربك. وهي أخلاق نبيك وأساسها الحياة في

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٨.

٢ ـ سورة المزمل، الآية ١٠.

حضرة رب الأرباب.

يقول رسول الله ﷺ:

«إن لكل دين خُلقاً وإنّ خُلقَ هذا الدين الحياء».

ذات يوم كان رسول الله ﷺ يتأزر ببرد بحراني وهو يمر بالطريق، فإذا بإعرابي يجر إزاره حتى التف على نحره الشريف، وراح الاعرابي يناديه متصايحاً وهو يطالب بحقه من بيت المال، فما ظهر أي تشوش وانكدار على نبي الرحمة وبحر الرأفة بل اعتلت شفتيه ابتسامة وهو يأمر بدفع مرتبه إليه. وفي هذه الأثناء نزلت الآية: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾. في شأنه.

في هذه الروضة لا تجدن وردة لا يوخزها شوك يجاورها. ومع ذلك تجد الورد دائماً باسماً.

يقول تعالى:

﴿عباد الرحمن الذين يمشون علىالأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾.[1] فهو ناصح أبناء عبدالمطلب أن يلقوا السلام بوضوح ويصلوا الرحم ويهتموا بالإطعام ويحسنوا القول ليأمنوا عذاب الجحيم ويردوا دار النعيم.

سأل جراح مدائني الإمام الصادق عليه السلام عن مكارم الأخلاق فأجاب: الصفح عن الناس ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً.

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٦٣.

وتذكر مصادر أخرى أن الحسين بن عطية سأل الإمام الصادق عليه السلام عنها فقال:

«المكارم عشر فإن استطعت أن تكون فيك فلتكن فإنها تكون في الرجل ولا تكون في ولده تكون في الولد ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في الحر. قيل: وما هن؟ قال:

- صدق البأس،
- وصدق اللسان،
- وأداء الأمانة،
- وصلة الرحم،
- وإقراء الضيف،
- وإطعام السائل،
- والمكافأة على الصنايع،
- والتذمم للجار،
- والتذمم للصاحب،
- ورأسهن الحياء (من الله).».

* * *

تلاحظ أن الحسنات كلها تنضم إلى هذا العبارات العشر. وأنت، برعايتها، لك أن تلتحق بركب السالكين في طريق الحق تعالى:

سئل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عما هو منتهى حسن الخلق،

فقال بأنه أن تحادث الناس بما تحب أن يحادثوك عنه.

ويروي أبو ذر (رض) أنه سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ فقال: أحسنهم خلقاً. قلت: فأي المؤمنين أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وجاء في كتاب مصباح الشريعة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«حسن المعاشرة مع خلق الله تعالى في غير معصية من مزيد فضل الله تعالى عند عبده. ومن كان خاضعاً لله في السر كان حسن المعاشرة في العلانية. فعاشر الخلق لله تعالى ولا تعاشرهم لنصيبك لأمر الدنيا، ولطلب الجاه والرياء والسمعة. ولا تَسْقُطَنَّ بسببها عن حدود الشريعة من باب المماثلة والشهرة، فإنهم لا يغنون عنك شيئاً وتفوتك الآخرة بلا فائدة».

إذاً، لا بد أن تكون معاشرتنا طلباً لرضا الله، لا تقصياً للمنافع الدنيوية والجاه والوجاهة والتظاهر والشهرة والألقاب وتقليد الآخرين.فحتى لو لم تكن هذه الأعمال خروجاً منك عن حدود الشريعة وتدنياً عن قدرك باعتبارك إنساناً، فلست بحاصل على أصغر نفع من الناس فإنهم ليسوا بذي قدرة على تلبية أدنى حاجة لك. ففي هذه الحالة تضحي بآخرتك دون أن تنال نفعاً من دنياك. إذاً، واظب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفق ولا تتجردن على أية حال عن نقاء نواياك وطلب الخير من قرارة القلب للآخرين، وأعرض عمن تلقيك معاشرته في مهاوي الغفلة عن ذكر الله. واهجر من تأتي

عليك صحبته بترك الطاعة والعبادة لأنه من أنصار الشيطان وأعوانه.

أنت لبذي تحكم بنفسك ولكنك لا تتحكم بغيرك إلا في إطار ضيق جداً. من هنا فإنك ترى، دون شك، إلى جانبك في حياتك مظاهر العنف والفظاظة والتمرد والانحراف ومناوئة الحق وأنت لعاجز عن تغييرها جميعاً. ومسؤوليتك هي أن تمضي في سبيلك ولا تتنحى عن الصراط المستقيم أبداً.

* * *

فيا طيب بُلَّ حلو الذكر بحلاوة لا تعيث مسيرة الأحداث فيها فساداً مهما كانت. لست حلواً فقط بل أنت لكل شراب حلاوة ونكهة.

فيا قمرنا في ليلتنا المضيئة، في ليالي طلوع البدر يزداد الكلاب نباحاً. لا بأس عليك وأنت صاحب الدرب السماوي من عويل سكان مزابل أرضك! أنت سروٌ حُرٌ، وكم من ركلة يتلقاها السرو من أقدام الغرابين ما لا تتلقاها أية شجرة أخرى. فما ضير خضرة السرو من سواد الغرابين؟

يروى أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نادى غلاماً له ثلاثاً فما أجابه ونهض وجاءه فسأله عما إذا كان سمعة أم لا؟ فأجاب الغلام بالإيجاب معقباً أنه لما كان يعلم أنه لا يسخط عليه لعدم انصياعه له وكان هو آمناً من العقاب، تماطل. فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن أعتقه في سبيل الله.

ويروى أن معروف الكرخي وقف عند ضفة نهر دجلة يتوضأ فسرقت امرأة مصحفه وسجادته فتبعها معروف ولما لحق بها سألها إن كان عندها ابن يقرأ القرآن فأجابت لا. عاد يسأل إن كان زوجها يقرأ القرآن، فقالت: لا. عندئذ طالبها أن تعيد إليه المصحف وتصبح السجادة ملكاً لها.

سُئِل أحد العرفاء ما هو الخلق الحسن؟ فأجاب بأنه ما ارتضاه الله سبحانه وتعالى لنبيه، وهو الذي أمره أن: «خذ العفو وأمر بالعرف».

وقيل أن الخلق الحسن هو أن تتلقى ما تواجهه من جفاء الخلق مرحباً وأن تستسلم لقضاء الحق، فلا تبدي قلقلة أو جزعاً.

يروى أن مقاتلاً مر بإبراهيم بن أدهم وهو ماض في الصحراء، فسأله عن العمران، فأشار إبراهيم إلى المقبرة، فضربه المقاتل بهراوة يحملها. وبعد أن مضى في سبيله قليلاً أخبروه أن الرجل كان إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فعاد أدراجه واعتذر منه، فأخبره إبراهيم بن أدهم أنه كان منشغلاً بالدعاء له لأنه رأى أنه سوف يثاب على هذا العمل فأسف أن يؤجر هو خيراً بسبب الرجل، والرجل يعاقب عذاباً بسببه هو.

لزيادة في الحث والتشجيع أنهي بحثي هذا بالأحاديث التالية:

- الخلق الحسن نصف الدين
- الإسلام حسن الخلق

- حسن الخلق رأس كل بر
- إن أحسن الحسن، الخلق الحسن.

## «حسن المعاشرة في غير المعصية»

أيها العزيز!

المَعبَر ضيق للغاية والطريق حـالك الظـلمة. إيـاك أن يـولد لديك كلامنا عن حسن الخلق فكرة مسايرة الجميع في نهجهم حتى يخيل للجميع أنك من جماعتهم. فهذه الأخلاق لا تليق إلا بالمنافقين، أمـا أنت فأنت تتبع القرآن وهو يحدثك:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.(١)

فليس بمقدورك أن تتعامل مع الجميع على نفس الوتـيرة. وديـننا حدد لنا حدود السلام والرد والمصافحة والمعانقة والتـعاملات. وأنـا رسمت لك معالم سيماء محمد المصطفى ﷺ لتقتبس عنه الأخلاق، لا أن ترتضي منها بما يرتضي الناس. فأنت تقصَ أخلاق تلك الأسوة سواء سرّ ذلك الناس أم لم يسرهم.

كان أمير المؤمنين إذا صعد المنبر قال: «ينبغي للمسلم ان يتجنب

---

١ ـ سورة الفتح، الآية ٢٩.

مواخاة ثلاثة: الماجن الفاجر والأحمق والكذاب.

فأما الماجن الفاجر فيزين لك فعله ويحب أنك مثله ولا يعينك على أمر دينك ومعادك ومقاربته جفاء وقسوة ومَدخَلُه ومخرجه عار عليك.

وأما الأحمق فإنه لا يشير عليك بخير ولا يُرجى لصرف السوء عنك ولو أجهد نفسه، وربما أراد منفعتك فضرّك. فموته خير من حياته وسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه.

وأما الكذاب بإنه لا يهنئك معه عيش ينقل حديثك وينقل إليك الحديث كلما أفنى أحدوثة مطرها بأخرى مثلها حتى إنه يُحدّث بالصدق فما يُصدَّق ويُفرّق بين الناس بالعداوة فينبت السخائم في الصدور. فاتقوا الله عز وجل وانظروا لأنفسكم».[١]

ويروي الإمام الباقر ﷺ عن أبيه علي بن الحسين ﷺ أنه قال:

«يا بني! أنظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق.

- فقلت:

يا أبت من هم؟ عرّفنيهم.

- قال:

- إياك ومصاحبة الكذاب، فإنه بمنزلة السراب يقرّب لك البعيد ويبعد لك القريب.

- وإياك ومصاحبة الفاسق، فإنه بائعك بأكلة أو أقل من ذلك.

---

١ ـ الكافي، باب العشرة.

- وإياك ومصاحبة البخيل، فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكـون إليه.

- وإياك ومصاحبة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

- وإياك ومصاحبة القاطع لرحمه، فإني وجدته ملعوناً في كـتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع.

قال الله عز وجل: «فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.

وقال عز وجل:

«الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار».

وقال في البقرة:

«الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون».[١]

ويقول أبو الربيع الشامي:

«دخلت على أبي عبد الله (الصادق ﷺ) والبيت غاص بأهله، فيه الخراساني والشامي، ومن أهل الآفاق. فلم أجـد مـوضعاً أقـعد فـيه فجلس أبو عبد الله ﷺ وكان متكئاً ثم قال:

«يا شيعة آل محمد! إعلموا أنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه ومن لم يحسن صحبة من صحبه ومخالفة من خالفه ومرافقة من رافقه

١ ـ الكافي، كتاب العشرة.

ومجاورة من جاوره وممالحة من مالحهُ.

يا شيعة آل محمد! إتقوا الله ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ويقول الإمام الباقر عليه السلام:

«اتبع من يبكيك وهو لك ناصح ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش، وستردون على الله جميعاً فتعلمون».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«انظروا من تحادثون؟ فإنه ليس من احد ينزل به الموت إلا مُثِّلَ له أصحابه إلى الله إن كانوا خياراً فخياراً وإن كانوا شراراً فشراراً، وليس أحد يموت إلا تمثلت له عند موته».[1]

فيا عزيز النفس! تأمل في هذه الأحاديث وانظر من تعاشر فإن كان رفاقك أهل سوء، فاعلم انك سوف تفقد كل ما أحرزت وحققت.

لو كان بمقدورك أن تختلي بربك فانفرد به فإنه القائل: «أنا جليس من ذكرني». فما أعذبها من معاشرة؟! ولو عجزت فبأهل ذكره وفي مجالس تعتمر بذكره بأُنسه. فأنت فيها أيضاً جليس ربك.

وأما فيما جاء من أحاديث حول الحب والعداء، فاستمع إلى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«حب الأبرار للأبرار ثواب للأبرار، وحب الفجار للأبرار فضيلة للأبرار وبغض الفجار للأبرار زين للأبرار، وبغض الأبرار للفجار خزي

---

١ ـ الكافي، كتاب العشرة.

على الفجار».[١]

ومما أورد الكليني في كتابه الكافي مما نصح به لقمان الحكيم أبنه:

«يا بني لا تقترب فتكون أبعد لك.. ولا تبعد فتهان. كل دابة تُحب مثلها. وإنَّ ابن آدم يُحِبُّ مثله. ولا تنشر بِرَّك إلا عند باغيه. كما ليس بين الذئب والكبش خُلَّة كذلك ليس بين البار والفاجر خُلَّة. من يقترب من الزفت يُعلَّق به بعضه، كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طُرقه. من يحب المراء يُشتم، ومن يدخل مداخل السوء يُتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم».[٢]

---

١ ـ الكافي، كتاب العشرة.

٢ ـ الكافي، كتاب العشرة. (الخُلَّة الصداقة والود).

## «الاستغناء عن الناس»

حتى تلك الليالي كانت النجوم عند النبي ابراهيم خليل الرحمن ﷺ لعلى جاذبية لا تفوقها جاذبية، ولكن ذلك عندما تخلو السماء من آية جمال البدر في منتصف الشهر فقط. والقمر كان يشغله حتى الأسحار مادامت الآفاق لم تنبجس بعد عن الشمس الوضاءة، والشمس يتحدد وجودها الدافىء بما قبل موعد غروبها فقط. ولكن متى ما يتجلى الله لقلب السالك يردد إزاء ما سواه نغمة ﴿إني لا أحب الآفلين﴾ كما قالها ابراهيم.

أرى تجليات أنوار المعرفة تبزغ من آفاق روحك رويداً رويداً. فتوجه إلى صاحب الغنى المطلق وهو صاحب كل ما ملكه غيره. فخذ الماء عن نبعه، فما خلاه طالته التلوثات.

فالله غيور يسيء إليه دقك باب غيره. وقد حدثتك في بحث التوكل في هذا الخصوص. أريدك الآن أن تأبى التخلي عن احترامك لذاتك بأثمن إكسير. فالشرف لا يناله بعد الله سوى عباده المخلصين.

وأنت عزيز ما دمت عبداً للعزيز! فَلِمَ تريق ماء وجهك، وأنت الأكبر في خزان العالم؟ لا يضيق قلبك بالمجرات.

ولك برهان على ذلك من شعر للإمام علي ﷺ:

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر

وتزعم انك جُرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

وكان أبو يزيد البسطامي يقول بأن السماوات جميعاً بمنتهى عظمتها تستقر في ركن من قلبه.

فكيف للإنسان بكل هذه العظمة (وقد تكون بعون الله اصطبغت بها حتى الآن) أن يحني رأسه لغير خالقه، لغير ربه، لغير رازقه، لغير معينه ومستعانه، لغير مبدأه ومآله.

يقول الإمام الصادق ﷺ:

«شرف المؤمن قيام الليل وعزُّه استغناؤه عن الناس».

وأنت إذا وقفت بباب حبيبك لا بد أن يكون قلبك خاوياً من رجاء من سواه ليفتح الباب بوجهك. فما طائل وقوفك بهذه الحضرة وقلبك يحلق في أجواء لا متناهية.

استمع إلى الإمام جعفر الصادق ﷺ يقول:

«إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم ولا يكون له رجاء إلا عند الله، فإذا علم الله عز وجل ذلك من

قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه».

عليك أن تستأنس بمن خاطبك:

«نحن أقرب إليه من حبل الوريد»،

وبمن: «هو معكم أينما كنتم».

تغنج بباطنك ولا تتحامل على خارجك. فلك في أجواء نفسك ان تزيح الستار عن مئات الأسرار.

وقد حدثك:

﴿أليس الله بكاف عبده﴾.(١)

ونبيك الكريم ﷺ نصح أبا ذر أن يستغني بغنى إلهي، فسأله بما يتحدد ذلك، فأجابه بأنه يتحدد بطعام ليلة ونهار فمن رضي به كان أغنى الناس. إياك وأن يخيل إليك أن الاستغناء يكون بالمزيد فأنت لو كنت تطلب الاستزادة، سوف تنتقص وضعك وتتولع في الاستزادة وتضرم نار الطمع في وجودك مهما تملكت. وقد مَثَّل النبي عيسى ابن مريم عليه السلام حب الدنيا بشرب ماء البحر المالح، فشربه يزيد شاربه عطشاً كلما زاد من شربه.

فأنت مستغن إذا كنت قانعاً، وإلا فالغنى حُلم لا يتحقق في واقعك. فقد قال الإمام علي عليه السلام:

«ابن آدم! إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك. وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك».

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٣٦.

والأروع إنك كلما رَضيت بالقليل من ربك رضى هو أيضاً بالقليل منك. وقد أخبرك الإمام الرضا عليه السلام:

«من لم يقنعه من الرزق إلا الكثير لم يكفه من العمل إلا الكثير. ومن كفاه من الرزق القليل فإنه يكفيه من العمل، القليل».

ومن جهته قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من استغنى أغناه الله».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً».

أيها العزيز! أودع قلبك بيد ملكوت العالم، ففيه الغنى، غنى لا يذهبن عنك أبداً ولا ينأى عن حواليك. ففيه ينال القلب الارتواء، والنفس القيام بذات «الغنى». فما سوى هذه الحضرة لا تصيبن فيه إلا العبودية.

فإذا كانت «أنا»ك لألف فن ضحية، فمتى لها أن تذوق طعم الحرية. فأنت مادمت تجد نفسك حراً، تشبعها في ألف موقع أسراً، وتزيدها في كل لحظة وخطوة قيداً، اعتقها بالله عليك من كل هذه القيود لتذوق لذة الانطلاق والتحليق.

إطمح لنيل ما عند الله. فتعليق الآمال على مشجب مال الناس خطأ محض.

تقص لحاجتك تلبية من لدن المستغني. لا تطرق باب غيره. فالرق عنده سيادة واستعلاء وعند سواه ذلة واستجداء، فليستوعبن قلبك

كلام المصطفى ﷺ حيث يقول:

«الغنى اليأس عما في أيدي الناس».

والتزم في حياتك بحديث آخر منه:

«ما فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

إذاً، الغنى في الاستجداء عند باب الحبيب، والفقر في استقصاء الهدف من غيره. ألم تسمع قوله تعال:

﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾.[١]

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«اليأس مما في أيدي الناس عزّ للمؤمن في دينه أَوَ ما سمعت قول حاتم:

إذا ما عزمت اليأس الفيته الغنى إذا عرّفته النفس، والطمع الفقر»

---

١ ـ سورة المزمل، الآية ٨.

## «مشاهد بديعة من مسرح الحياة»

الآن، غدت مزرعة قلبك على استعداد للإثمار، وصارت تكتظ بجنبات مزهرة وأشجار مظللة وأغصان متبرعمة، ترفدها أمطار رحمة لا متناهية وألطاف صاحب قدرة سرمدية.

رأيت وما ألطف ما رأيت: كيف يمكن أن تتحول الصحراء الجرداء إلى روضة غناء، النكبة والخفة إلى نكهة ورحمة. واللهِ لَحَقُ هذه الهجرة من الشكر يفوق شكرك لأية نعمة.

الآن، ابسط طرف ردائك لأصب فيه مقتطفات من الزهور، فنحن نتوي نثرها أمام الراغبين في السلوك إليه شكراً له عسى أن لا نتراجع إلى الخلف. فما أدراك ما ينتظرك من خير ونعماء فيما هو آت؟!

قال تعالى:

﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.[1]

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

ولتظفر بهذه النعم لا بد لك من التقصد. ولكن فيم؟ في الكلام، فيما لا يستساغ من معاشرات، في النوم الزائد عن الحاجة، في الطلب المغالى فيه لمتطلبات العيش.

وأنت يتوجب عليك ملء حضنك. فالورد كثير والوقت قصير. أزل عن وجودك كل شيء ليحل الله محلها. تهافت على العبادة ليرويك منها، تلهف لقربه لتُمنح فرصة لقائه، شمِّر عن ساعد الهمة لتظفر بقمة الكرامة.

إصغ إلى الإمام الصادق عليه السلام:

«أفضل الناس من عشق العبادة، فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر».

يدعوك للتفرغ لها أي أن تقلص أعمالك الغير ضرورية لتزيد من عبادتك. كم ساعة قضيتها من وقتك الثمين في كلام لا قيمة له؟ كم أهدرت من لحظات عمرك في نقاش لا ضرورة له؟ ألم تسمع قول إمامك الصادق عليه السلام:

«الصمت شعار المحققين ما سبق وجَفّ القلم به وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة وفيه رضا الرب وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل».

وتخلصاً من هذا الطابع كان بعض الصحابة يضعون أحجاراً في أفواههم للحيلولة دون تحدثهم بكلام في غير محله.

كما يروى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«الصمت باب من أبواب الحكمة وانه دليل كل خير».

ولما ينحسر كلامك يزداد هدوءك. فاغتنمه في ذكر الحبيب ذكراً باطنياً روحياً إن كانت ثمالتك في حبه شديدة وذكراً لفظياً إن كانت ضعيفة.

تعامل مع أذنيك بمثل تعاملك مع اللسان. فأنت إن اصغيت لأي كلام، أنّى لك أن تخوض غمار التفكير والتعقل؟ لا تشغل سمعك إلا عند الضرورة. مر على كثير من الحديث العابث مرور الكرام لتقي نفسك شر الكثير من شواغل لا حاجة لك بها واتلاف وقت لا ترغم عليه.

وإذا أكلت، تجنب الإكثار، فالمعدة المكتظة بالطعام تمنع أشراقة أنوار باطنك. فقد قال الإمام الصادق:

«ليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة شيئين: قسوة القلب، وهيجان الشهوة. وطوبى لمن طوى وجاع وصبر».

وإياك أن تجعلن للصلاة والذكر موعداً بعد تناول الطعام. فأبواب الملكوت تكون أسرع انفتاحاً أمامك كلما ازددت خفة. وأنت تبدأ الأكل اعزل نصيبك منه. فالبطن كثيرة النسيان تنسى ما صببت فيها وكأنها لم تستوعب شيئاً. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله أن الإنسان لا يملأن وعاء شراً من وعاء المعدة. ولكي لا تملأ هذا الوعاء أبداً اترك المائدة قبل الشبع. لتتفتح أمامك أبواب عالم الصحة والسلامة إضافة إلى ما تظفر به من مكاسب روحية. قرأت كلاماً لأخصائي حاذق

حيث يقول أن للإنسان كفافاً في ثلث ما يأكل من طعام، وثلثاه يتناولهما لتشغيل عيادات الأطباء.

فأنت إذا اقتصدت في الكلام وأمسكت عن زائد الطعام يتسنى لك أن تجهد للتخلص من فقرك في ذكرك. فالفرصة مؤاتية وذكره بأي من أسمائه مداعبة للروح وملاطفة للنفس.

وإذا استقصيت للعيش رزقاً فلا تتشبثن في طلب زائدة، فأنت بحاجة لفاضل الوقت تنفقه في عبادة تتزود بها لراحتك.

أرهف سمعك لكلام من الإمام الصادق عليه السلام:

«كفوا ألسنتكم وألزموا بيوتكم».

وإذا رأيت نفسك تستدرج نحو وادي الغفلة وحضيض المعصية أثناء معاشراتك مع الناس فاستنصح بقول الإمام الصادق عليه السلام:

«فرّ من الناس فرارك من الأسد والأفعى فإنهم كانوا دواءً فصاروا داء».

تزين بحلة العبادة عند استئناسك بالله في خلواتك. حدّثه:

إلهي! دعوتني فتطهرت من الذنب مستغفراً، وانقطعت إليك دون رفاق السوء مستبشراً، وفي عالم الأنس لك مختاراً. أتيتك لا أحمل رصيداً بل إلى فضلك طامحاً وأنت القائل لبيك:

﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله سميع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.[١]

يا عالماً وسعت الأكوان رحمته، ويا صاحب فضل تعاظمت نعمه!

---

١ ـ سورة آل عمران، الآيتان ٧٣ و٧٤.

أمطار رحمتك تغمدت الأشواك أيضاً وهي تجاور الأزهار. صحيح أننا لم نترق للتمثل بالأزهار ولكنّ للشوك أيضاً نصيباً من رحمتك.

إلهي! أغرق قلبي في حبك حتى أزيح الأغيار عن ساحة اختلائه بك. أواه ما أعظم هذه النعمة؟!

استمع إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«ما أنعم الله على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره».

في هذه المحطة، لا أريد تطهيرك من آثامك فقد مررنا بهذا البحث في وقفتنا مع التزكي، أريدك أن تنقي وجودك بكله عمن سواه وتدير ظهرك لها متوجهاً إليه، لا تتقص حبيباً إلا هو، ولا تتحدث عن غيره فمحض ذلك هفوة في هذه المحطة.

ألم تسمع:

«حسنات الأبرار سيئات المقرّبين».

أنت الآن لا تعبد أوثان «آزر» بل تعلو مئات الأوثان بهاماتها في قلبك. أريدك أن تزيلها جميعاً. وقد حدد الإمام الصادق عليه السلام مفهوم الوثن بأن كل ما يحول بينك وبين الله هو وثن.

أيها العزيز! الله غيور. لا يريد لقلوب أحبائه أن تستوعب غيره. ألم تسمعه يقول:

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون﴾.[1]

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآيات ١ – ٣.

فهذا اللغو ليس خاصاً باللسان بل قد يداهم اليد والساق والعين والقلب أيضاً.

لا تنس أنك كنت سماوياً أرضياً. فارفع رأسك وان كنت استأنست بالأرض فترة. هنا المصائد تتربص بك، ولا ينتظرك هنالك إلا الهدوء والراحة. الأرضيون يمنعون تحليقك فاتركهم وتربتهم، فقد طال انتظار الشمس.

كنت من زمرة أولياء النفس الأمارة بالسوء. تخليت عنهم ولله الحمد. حطمت أقفال زنزانتك. فمن أسر شيطانك كن فاراً وبوادي نفسك اللوامة لائذاً، وفي كل ليلة لذاتك على هفوات نهارك معاتباً. هنيئاً لك ورودك روضة النفس المطمئنة. أواه ما أعذبها من سكنى! وقد دعا الله عز وجل سكانها إليه. إسمع الآية:

﴿يا ايتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك﴾.

إنها دعوة لايلاء الظهر إلى الأغيار والانقطاع إلى الحبيب الستّار، أن تبغض الشيطان وتحب الرحمن، أن تقذف الرجيم بأعتى كلام وتأتي الرحيم بأحلى سلام، أن تكون للأوهام مودعاً وعلى أحوال الحب مقبلاً. في هذا المنزل صوّب نظراتك إلى ربك، فإنك في كل ما تراه في طريقك إنما ترى تجليات ربوبيته. كل مصنوع ومخلوق في هذه الطريق إنما هو صنعه وخلقه. ببصره تبصرت وبزينته تزينت، فهل تتقصى لنفسك أحسن مما أنت عليه من صورة؟! أم أفضل منه حبيباً صاحب قدرة! قف على أعتاب حضرة هذا الرب متضرعاً تقول: ما دمت أوصلتني إلى هاهنا، لا تمنع عني ظلك الوارف، زدني عزاً به.

«رب لا تكلني إلى نفسي وإلى غيرك طرفة عين أبداً في الدنيا والآخرة».

أقم الآن في منزل الرضا، رضا وصفه الباري تعالى في الآية:

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾.

فنفسك ترقى إلى منزل «راضية مرضية» ورضا الله صفته. فتأمل كيف اندمج الإثنان معاً وبالتالي دُعيت نفسك:

﴿فادخلي في عبادي﴾.

الآن تفهم كنه حديث الإمام الصادق عليه السلام وما يُستوحىٰ منه من حيوية للروح:

«العبودية جوهرة كنهها ربوبية».

إنها في الحقيقة ذاك المنزل الذي جريت طوال عمرك تطلبه. إنه الهدف، وبه تتمثل نهاية الرحلة.

وهذا الشيخ عبد الله الأنصاري (ره) كان متلهفاً لسماع دعوة الباري هذه مردداً ما معناه:

«لو تناديني مرة واحدة يا عبدي، سوف يخترق العرش صوت ضحكي».

ألا تعلم أن الواله المظلوم بأرض كربلاء ترنم اعتزازاً لبلوغ هذا المقام فراح يقول:

«إلهي! كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً».

وأنت يومياً تذكر نبيك خمس مرات في صلواتك بهذا الشرف وأنت

تشهد «أن محمداً عبده ورسوله»، ويرى البعض أن شـرفه بـالعبودية لأرقى من شرفه بنيل مقام الرسالة.

إذاً، اتكىء في هذه المحطة إلى دعامة:

﴿وادخلي جنتي﴾.

البشرى بالجنة ذكرت لمئات المرات في القرآن الكريم ولكن جنة الحبيب لم تُذكر إلا في هذه المرة الفريدة حيث لا يردها إلا من نـال مقام «النفس المطمئنة» وفاز برضا الله تعالى وبـعبوديته عـلى خـير وجه.

## «طريق قل روّاده»

لقد لهوت وجد الموت في طلبي
وأنّ في الموت لي شغلاً عن اللعب
لو شمرت فكرتي فيما خقلت له
ما اشتَّد حزني على الدنيا ولا طلبي

عسى أن لا تجعلك قلة الرواد ترتاب في حقانية الرحلة. فمع أن الفطرة الإنسانية ميّالة لسلوك طريق الحقيقة، والإنسان محب للحقيقة وطالبٌ لها فطرياً، ولكنك تجد أكثر الناس قد أخرجتهم النفس والشيطان والميول الشخصية والغريزية إلى طريق الضلالة. هكذا كان وسيكون الإنسان على مر التاريخ. ذكّرتك بذلك، أريدك أن تتنبه فلا تدفعنك الكثرة المتمردة للتنكر لنور الهدى، والانبهار بدرب الضلالة.

قال الإمام علي عليه السلام:

«لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله».

فيا أيها العزيز! الدنيا تتجلى لك في خارجك والآخرة تستوحيها

من باطنك، وأكثر الناس لعلى التزام بمنطق الحواس وليس فيه سوى الحكم على المظاهر إلا إذا تقلد الإنسان بعمق التفكير، فيه يخترق حجب الظاهر ويتطلع بعين البصيرة إلى جمال الباطن. فالنظر في الأجسام نهج الحيوانات والتأمل في الأرواح سنة الإنسان وتعليق الأنظار في الله عز وجل حياة الملائكة. والأمر لك أيها تختار؟

ومع أن الله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين في مستهل سورة البقرة في الآية: «. الذين يؤمنون بالغيب»، ولكن أكثر الناس، وللأسف:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.[١]

فالإنسان ما أن يفتح عينيه حتى تقعان على عالمه الخارجي فيستأنس به، ويخلد إليه إلا إذا شاء أن يكون صقراً يبسط جناحيه مخترقاً مصيدة هذا الوحش الكاسر، محلقاً بها حتى يبلغ حضرة صاحب السلطان الأعلى!

إذاً، افتح عيني قلبك لترى حقيقة الناس كما وصفها الإمام الباقر عليه السلام حيث كان يقول بأن أكثر الناس أشبه بالبهائم إلا قلة قليلة، هم المؤمنون، ويؤكد أن المؤمن غريب غريب غريب في هذه الدنيا.

هكذا هو حال المؤمنين الآن بل منذ صدر الاسلام وحتى في المستقبل. فهذا هو صدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مازال يتردد في الأسماع. أنظر كذلك إلى ما تلقاه الإمام علي عليه السلام على مر حياته وماذا جرى على زهرائه وعلى عترته الشريفة عليهم السلام جميعاً:

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٧.

عن سدير الصيرفي، قال: دخلت على أبي عبد الله (أي الإمام الصادق) عليه السلام، فقلت له: والله ما يسعك القعود قال: ولِمَ يا سدير؟ قلت: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك والله لو كان لأمير المؤمنين مالك من الشيعة والأنصار والموالي، ما طمع فيه تيم ولا عديٌّ فقال: يا سدير وكم عسى أن تكونوا؟ قلت: مائة ألف، قال: مائة ألف؟ قلت: نعم، ومائتي ألف؟ فقال: ومائتي ألف؟ قلت: نعم ونصف الدنيا، قال: فسكت عني ثمَّ قال: يخفُّ عليك أن تبلغ معنا إلى ينبع؟ قلت: نعم، فأمر بحمار وبغل أن يسرجا، فبادرت، فركبت الحمار فقال: يا سدير ترى أن تؤثرني بالحمار؟ قلت: البغل أزين وأنبل، قال: الحمار أرفق بي. فنزل فركب الحمار وركبت البغل، فمضينا فحانت الصلاة فقال: يا سدير انزل بنا نصلي، ثمَّ قال: هذه أرض سبخة لا يجوز الصلاة فيها، فسرنا حتّى صرنا إلى أرض حمراء ونظر إلى غلام يرعى جِداءً فقال: والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء، ما وسعني القعود، ونزلنا وصلّينا، فلمّا فرغنا من الصلاة عطفت إلى الجداء فعددتها فإذا هي سبعة عشر.

وقد أقسم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حديث له أنه في برهة من الزمان ما كان يعبد الله على وجه الأرض سوى شخصٍ واحدٍ. هذا ما يلوح من الآية: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾[1]، والا لكان اسمه ذُكر إلى جانب اسم النبي ابراهيم عليه السلام.

---

١ ـ سورةالنحل، الآية ١٢٠.

إذ، انفردعليه السلام بعبادته لله إلى أن رزقه الله بـإسماعيل وإسـحاق عليهما السلام أنيسين له، فصار عدد المؤمنين بالله إلى ثلاثة. فو الله أهل الايمان في العالم قلة وأهل الكفر كثرة.

وأنت تصور نفسك وحيداً فريداً ترغب في استهلاك رحلة السلوك مهاجراً إلى الحبيب. هذا ما يترتب عليك تبني فكرته منذ البداية:

الانفراد على طول الطريق والوحدانية على مر الرحلة. فإن عثرت على صديق وأنت تمضي في سبيلك، فما أروع ذلك. فأنت تزداد حظاً من إسهام الأفكار، إتخذه أنيساً، فإنه لك عون.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله سبحانه وتعالى قال:

«لو لم يكن من خلقي في الأرض فيما بين المشرق والمغرب إلا مؤمن واحد مع إمام عادل، لاستغنيت بعبادتهما عن جميع ما خلقت ولقامت سبع سماوات وأرضين بهما».

ولكن لا تتقصى سواه أنيساً واقعياً، ولا تحادث غيره مستأنساً فإنه خير مؤنس وأنيس، وخير صاحب وجليس، وخير حبيب ومحبوب، وخير طالب ومطلوب وخير ذاكر ومذكور. هذا لدنياك.

أما بعيد الرحيل عنها، فهل تتوقع خيراً مما بُشّرت به في الحديث التالي:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إنما سمي المؤمن لأنه يؤمن من عذاب الله تعالى، ويؤمن عـلى الله يوم القيامة فيجيز له ذلك».

وأما لآخرتك فكفاك ما جاء في الآية:

﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.[١]

ذاك من أولاك ووسطاك. وهذا من آخرتك. الآن أخبرني هل أنت بحاجة لغير ربك؟

﴿أليس الله بكاف عبده﴾.[٢]

ولأوضح لك المزيد عن عزّ ينتظرك تأمل في الحديث القدسي:

«يابن آدم! أنا حي لا أموت، أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت.

يابن آدم! أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون».[٣]

وهذا المقام جاءتك بشراه في الآية:

﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نُزلاً من غفور رحيم﴾.[٤]

إذاً، إجهد أيها العزيز! أن تقضي أيام شبابك في طاعة الله حتى يدب الشيب في سواد شعرك، فبزوغ البياض يبشرك بانتهاء ليل الفراق مع نضوج صباح الوصال.

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٣٦.

٣ ـ مستدرك الوسائل ١١، ص ٢٥٨، ح ١٢٩٢٨.

٤ ـ سورة فصلت، الآية ٣١.

قال رسول الله ﷺ:

«من شاب شيبة[١] كانت له نوراً يوم القيامة».

وإن اتخذت خطواتك متأخراً فطرقت بابه والشيب يدب في صدغيك لا تيأسن من التسول على بابه بل خاطب صاحب الدار:

رسم است كه مالكان تحرير آزاد كنند بنده پير
اى بار خداى گيتى آراى بربنده پير خود ببخشاى[٢]

* * *

فإذا شدّك الشوق إلى الملاح فاطلب ضالتك في تلك الدار، فقد حدّث رسول الله ﷺ أبا ذر قائلاً:

«يا أبا ذر، لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت من سماء الدنيا في ليلة ظلماء، لأضاءت لها الأرض كما تضيء ليلة البدر. ولوجد ريح نشرها جميع أهل الأرض، ولو أن ثوباً من ثياب الجنة نشر في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم».

أما الإمام الصادق عليه السلام فإنه قال يخاطب أبا بصير:

«ان من أدنى نعيم أهل الجنة أن يوجد ريحها من مسيرة ألف عام

---

١ـ ويقصد في سبيل الإسلام.

٢ـ البيتان للشاعر سعدي الشيرازي، ومعناهما:

- «جرت العادة عند أصحاب الحرية، أن يعتقوا العبيد المسنين».
- «فيا إلهي ورب الكون، اصفح عن عبدك المسن».

من مسافة الدنيا».

وقال كذلك:

«أن اطيب شيء في الجنة وألذه حب الله والحب في الله والحمد لله. قال الله عز وجل:

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.[١]

كان رسول الله ﷺ يذكر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي القوم أعرابي فجثا لركبتيه، وقال: يا رسول الله! هل في الجنة من سماع؟

– قال: نعم يا اعرابي: ان في الجنة لنهراً حافتاه أبكار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط. فذلك افضل نعيم الجنة».[٢]

وفي صفة الجنة قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «درجات متفاضلات ومنازل متفاوتان، لا ينقطع نعيمها، ولا يظعن مقيمها ولا يهرم خالدها، ولا ييأس ساكنها».

أعلم أنك متلهف لطيب الكلام وعذب النغمات، فاستمع لبشرى أخرى.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

---

١ ـ سورة يونس، الآية ١٠.

٢ ـ قال الراوي سألت أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح.

«ان في الجنة شجراً يأمر الله رياحها فتهب فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً».

ثم قال: هذا عوض لمن ترك السماع في الدنيا من مخافة الله».

فيا أيها العزيز!

التعلق بهذه النغمات لجائز. وإنه لمن المؤسف أن تأسرك المغريات الزائفة:

﴿إنّ وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾.[١]

بل لا ترض لنفسك إلا بما وعدت به في الدار الآخرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ملكاً كبيراً﴾.[٢]

إجلس على عرش سلطانك لترد عليك ملائكة ربك تلقي عليك تحيات حبيبك وتقرأ عليك نداءه:

﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.[٣]

فيا عظيم الهمة! الهدف سام، فلا يخدعنك النزر القليل وإن تعرضت للعناء في طريقك فإنه ثمن غناك.

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ٣٣.

٢ ـ سورة الدهر، الآية ٢٠.

٣ ـ سورة الرعد، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

## «اغتنم فرصة اللحظات»

الآن وقد عرفت قيمة دقائقك وأية ذخيرة يمكنك أن تضيف خلال هذه الدقائق إلى رصيدك. فما وعدت من جنة إنما هي حصيلة هذه اللحظات التي تمر بك الواحدة تلو الأخرى.استمع لصدى عقارب الساعة وكأنها صدى أقدام عمرك على مسرح الزمان.

إجهد أن لا تهدر هذه اللحظات في الغفلة فالثراء إن أُفني قد يعوّض عنه. ولكن الزمان لا استدراك له.

يروى أن ملكاً كان يجلس إلى ساحل البحر إلى جانبه دُرج مملوء بالمجوهرات يلقي منها في البحر الواحدة تلو الأخرى.

– سئل: أيها الملك! أوَ تعرف ماذا تفعل؟!

– أجاب: ألتذ بصدى الدر في الماء.

فما أحمقه من ملك! فهل تعرف أننا، أنا وأنت، لأية لذة عابثة وآنية في الحياة نلقي، بحماقاتنا، ساعات عمرنا الثمينة في غياهب بحر العدم.

إذاً، اينما تكون: في المسجد أو السوق، عـاملاً كـنت أو عـاطلاً، راقداً في سريرك أم ماشياً على قدميك، تجاور الورد أو الشوك، دعك تستثمر لحظات عمرك بما تخولك به قدرتك ولو تحدد بتسبيح أو ذكر أو التفات أو لقاء. هذا هو ما نعنيه بقولنا أن الزاهد ابن الوقت.

ولهذا نصح رسول الله ﷺ أبا ذر أن يغتنم خمساً قبل خمس:

- الشباب قبل الهرم،
- الصحة قبل السقم.
- الغناء قبل الفقر،
- الفراغ قبل الانشغال،
- والحياة قبل الممات.

* * *

سوف يأتيك يوم تواسي نفسك على فقد هـذه النـعم فـما أعـظم حسراتك إن لم تحمل منها ذخراً لمـثل يـومك ذاك! فـجميع المـوتى يطمحون للعودة إلى الحياة ليقضوا العمر متعبدين. حتى أن السيدة مريم العذراءعليها السلام لما أتت النبي عيسى عليه السلام في منامه وسألها عما تطمح إليه، أجابته أنها تتمنى أن تعود إلى الدنيا ليلة واحدة فتقيم فيها متعبدة ربها.

فيا أيها العزيز!

كم ليلة اغتنمت حتى الآن بما يكفي؟

كم خطوة اتخذت حتى الآن في جادة رب الأرباب؟

كم من الكلام نطقت به في سبيل ربك؟

لأية معاناة تجلدت وأنت تذكره؟

وأية تمنيات قمعت في نفسك طلباً لرضاه؟

كل هذه غنائم. أي والله. فكم هو ذخرك منها.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«ان اعظم الحسرات يوم القيامة، حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله».

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«ان الحسرة والندامة والويل كله لمن لم ينتفع بما أبصره ومن لم يدر الأمر الذي هو عليه مقيم أنفع له أم ضرر».

ولكي تكف نفسك ضراوة نار هذه الحسرة الطويلة الأمد في البرزخ وفي يوم القيامة، سلِّم نفسك لقضاء الله منذ أن تنهض في الصباح واستعذ به من الشيطان، ومن نفسك.

ولكي تثمن ساعات عمرك ولا يخدعنك طول الأمل، وتأمن من الانبهار ببهارج المستقبل الزائفة، أنظر كم من الناس قضى نحبه وهو في مثل عمرك، فتركوا وراءهم آمالاً لم تتحقق ومشاريع لم تنجز وبيوتاً لم تشيد وفخراً لم يحرز. صارت المناصب للآخرين وأولئك الذين بنوا قصور أحلامهم عليها يرقدون في ثغرات قبورهم. حتى لو وفق أحدهم لانجاز مشاريعه، فماذا يفرق بالنسبة له تحققها أم عدم تحققها، حالات الوجود أو العدم؟

إذاً، لا تحزن لما تحرم منه في دنياك. فأنت لبواقف يوماً دون شك في حضرة أغنى الأغنياء، يوم تترك في قبرك فتكون أنت ومن أُنعم عليه في دنياه سواسية.

من هنا، لنتخذن ذكر الموت أفضل سلاح إزاء الشهوات والنفس والشيطان. تأمل في كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقطع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفي نار الحرص ويحقر الدنيا».

أو في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اذكروا هادم اللذات».

– قيل وما هو يا رسول الله؟

– فقال: الموت. ما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضاقت عليه الدنيا ولا في شدّة إلا اتسعت عليه. والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بني آدم وهو يعدُّه أبعد فما أجرأ الإنسان على نفسه وما أضعفه من خلق. وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين. ولذلك اشتاق من اشتاق الموت وكره من كره».

فمن مردودات زيارة أهل القبور هو الاعتبار من سكان هذه المقابر والتحدث إليهم والاستماع إلى كلامهم. فإن لم تكن لك أذن سمّاعة

لكلامهم، استمع لما يحادثهم به الإمام علي عليه السلام وما تلقاه من ردهم:

«يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نُكحت، وأما الأموال فقد قُسمت. هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟

ثم التفت إلى أصحابه، فقال:

- أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن «خير الزاد التقوى».

وقد ورد في الشريعة الإسلامية استحباب زيارة القبور في أيام الخميس. ألحق هذا الأمر ببرنامج حياتك لتستأنس بدار قرارك النهائي، فتأمن من نار الغربة فيها. صدقني موتى الأحياء تكتظ بهم المجتمعات، ولكنك قد تعثر بين سكان المقابر من يحيا حياة واقعية.

اعتبر بقول الشاعر

وكيف يلذ العيش من كان موقناً بأن المنايا بغتة ستعاجله
وكيف يلذ النوم من كان موقناً بأن إله الخلق لا بد سائله

## «في المراقبة ومحاسبة النفس»

رغم أننا تداولنا الكلام في هذا السياق في بحث التخلي ولكن لا بأس من تكراره لكي لا يخيل إليك أن هذه القضية تتعلق بالمحطة الأولى فقط. فما دمت قائماً في هذه الدنيا لا بد أن لا تغفل عن إدراج المراقبة ومحاسبة النفس في برنامج يومك. فقد قال ربك:

**﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾.**[1]

فالدار دار البناء والاستعداد. استعداد للحياة الواقعية، حياة سرمدية:

**﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾.**[2]

وأنت ترجح الأفضل وتحب الأبقى. وهاك بشراك في الآية:

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٨.

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

﴿والآخرة خير وأبقى﴾.[1]

إذاً، أعد رصيدك قبل حلول يوم التغابن واستثمر دقائق هذه الحياة الفانية. اصنع فيها أحجار الذهب والفضة لقصر جنتك، وإياك من اتلاف هذه اللحظات الثمينة وهي ذخر حياتك فتقعد ملوماً تعض أناملك حسرة عليها.

يقول تعالى:

﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى. يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾.[2]

*** 

تورع ما حرم الله وامتثل أوامره وانظر غداً ما أنت فاعله
فأنت بذي الدار لا شك تاجر لدار غد، فانظر غداً من تعامله

فاعلم، ما كان قدومك الى الدنيا الا لتخوض تجارة. وكان عمرك رأس مالك والجنة ورضوان الحق تعالى ربحك، ومتجرك لا بد له من محاسب، ولعدّ الربح والخسارة فيه من مراقب. ليس لديك من هو خليق بالثقة. كن محاسباً لنفسك في كل ليلة لتعلم ما هو ذخرك من يومك المنصرم.

---

١ ـ سورة الأعلى، الآية ١٧.

٢ ـ سورة الفجر، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

قال الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم. فان عمل حسناً استزاد الله. وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه».

ويقول الشاعر:

إذا ما كنت متخذاً وصياً
فكن فيما ملكت وصيّ نفسك
ستحصد ما زرعت غداً وتجني
إذا وضع الحساب ثمار غرسك

* * *

إنك بالطبع لو استعرضت لساعة من يومك مجريات عملك فقيّمت حاصله في حساب رصيدك. سوف تواصل المحاسبة في بقية أيام عمرك وتأمن من غفلتك عن مكر الشيطان فيما يخص عملك.

استمع إلى الإمام محمد الباقر عليه السلام حيث يقول:

«اعلموا عباد الله، أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم لا تستركم منهم ظلمة ليل داج... عوّدوا قلوبكم الترقب، واشروا الفكر والاعتبار».

أما الامام جعفر الصادق عليه السلام فإنه يقول لأحد أصحابه:

«انك قد جُعلت طبيب نفسك وبيّن لك الداء، وعُرّفت آية الصحة،

ودُللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك».

كلما كان لديّ عن التحلي آتيتك به، لا من عندي، فما أقلني حظاً من مثل هذا العلم، بل من عند الله وأولياء دينه والصالحين من خلقه. وأنا أقف مودعاً محطة التحلي، لا أعلم لو كنت قد رافقتني في كل خطواتي أم اكتفيت بقراءة سطوري.

هل يا ترى مرت عيناك بهذه السطور تقرأها أم تزودت منها برصيد ما؟ يشدني أمل كبير أن تكون وصلت معي إلى نفس هذا المقام بالفعل. فقد اجتزنا ولله الحمد الصحاري الجرداء، ووصلنا إلى ربوع ننعم فيها بالزاد والماء، وبالرياض والأزهار والرياحين. لك أن تأخذ قسطاً من الراحة لو رغبت. لا بأس. ولكن اعلمن أن الطريق لبعيد والهدف لمتعال وسام فلا تتخل عن استعدادك لخوض الرحلة. فما زال أمامنا منزل ومحطة أخيرة والخطوة الرابعة يراد لها عدّة وزاد من نوع إخر. فانتظرني حتى أعدّ الزاد فأقدّمه لك في كتاب «التجلي» إن شاء الله.

الطريق طريق الحب وهدف رحلة سلوكك لفي علو يدفعني لأجعلن ما تثيره من غبار في طريقك كحلاً لعينيّ، وأترنم كحافظ شيراز أن:

غبار رهگذرات كجاست تا حافظ

به يادگار نسيم صبانكه دارد[1]

---

١ ـ معناه:

- «اين غبار السالكين إليك، ليحتفظ به حافظ ذكرى لريح الصبا».

حتى فرصة لقائنا في الجزء القادم لا تترك مضيك إليه أو تتخل عما أودعه ربك في قلبك من لوعة فراقه فادعُه:

إلهي! إنك لو تجرد أياً كان من هذه اللوعة فلا تحرمنيه وأبقني متلظياً بهذه النار عمري.

وردد:

إننا والهون بك لا بغيرك. نركع متسولين على بابك. ندعوك، فأكرمنا يا خير الأكرمين وافتح لنا بابك. وان كانت مشيئتك لا تقتضي ذلك فلا تحرمنا من حق الاستعطاء منك، فلسنا لباب غير بابك عارفين.

* * *

ايها العزيز! وأنت تتم هذا الكتاب أسبغ الوضوء واجلس مستقبلاً القبلة واطلب من ربك أن ينعم بما ذُكر في هذا الجزء من صفات حميدة عليك وعلى مؤلفه فيزين قلوبنا وأرواحنا أجمعين بهذه الحلة فإنه هو الجميل ويحب الجمال.

وحتى أقدم لك بعون الله الجزء القادم استودعك الله راجياً منك الدعاء، دعاء تشتد حاجتي إليه فاغدق عليّ أنا الفقير برحمة دعائك على أمل حلول ربيع يحوّل فيه مبدل السيئات إلى الحسنات، هذه البيداء رياضاً وينمي فيها رياحينَ وأزهاراً.

# الفهرس